يوم مناسب للقتل

مجموعة قصصية



وللثقافة كلمة

تتميز كتابات **أشرف حسن** بعبق الذاكرة .. ذاكرة سيرته الذاتية ، ممتزجة بذاكرة مدينته المنصورة . روايته الأولي ، الفريدة " **رائحة البيوت** " والتوق للخلاص من الفقر .. عبر النداء الخفي من مريدي مولد الشيخ حسنين القريب .. مختلطاً بتوق الأقباط فى نفس الحى للخلاص أيضا من فقرهم ومعانات الحياة البسيطة وتوق الولد الراوي ، وقد اصطدم بثقافة الغرب عندما تلقي العلم علي يد الراهبات فى مدرسة الأمريكان القريبة ، وهو القادم لتوه من مدرسة تحفيظ القرآن الكريم .. إلتقى التزمتان .. فكيف تتحقق أشواق الصبي وقد بلغ مبلغ الحلم .
ونفس التوق ونفس الأشواق ومحاولة الخلاص .. المسلم والقبطي .. من الفقر والتزمت .. تحفل بها قصصه القصيرة أيضا .يتفتق قاع الذاكرة عن اليونانية المستوطنة وكانت لهم جالية كبيرة فى المنصورة . وهي هنا المسيحية المتحررة .. هل ترضي احلام الصبي وقد أصبح يافعاً .. ولا يكاد يستريح .. حتى تهب الرياح يعصف بها المجتمع .. التيارات السياسية المتصارعة .. ومعاناة بدايات الشباب . للبحث عن هويته .
فهل سيجد الراوي هويته ..
هذا ما سوف تخبرنا به قصصه ورواياته القادمة ..
واشرف من مواليد ٦٧/٥/١٤ بالمنصورة .. حاصل علي ليسانس آداب من قسم اللغة الإنجليزية وآخر من قسم اللغة الفرنسية ويعد الآن ماجستير عن فلوبير ، وقد صدرت له مجموعة قصصية فى سلسلة " **إبداعات** " عن الهيئة العامة لقصور الثقافة .

مدير عام الثقافة

الشاعر / مصطفي السعدني



أقوال جديدة ليعقوب

كان يجلس على السرير مرتلا ، بين ستائر الناموسية المسدلة ،التى استبدلوا قماشها الباتستا بقماش ستائر رخيص، بدا كأنما يلفه الدخان ...على ذراعى كان ولدى غارقا فى نومته. لم يكن هناك ما أفعله ، فرحت أتملى الغرفة . لم يدهشنى أنها على حالها . كأننى تركتها بالأمس. قطن الكنبة الأسيوطى مدكوك .لا تريحنى الجلسة ولا أستطع أن أسند ظهرى . الملاءة تفوح برائحة الصابون.. أمامى السرير الكبير ذو القضبان النحاسية المجزرة. بنفس لون الدولاب الذى خرج أحد درجيه السفليين وكأنه يمد لسانه لى ولعطن تلك الفوضى الزمانية . الغرفة تسبح فى نوم عميق تتنفسه رئتا أحمد .

الشباك ، على حافته ،خلف القضبان الصدئة ، حمامة تهدل وتهز ذيلـــــها .
تكعيبة العنب تلقى ظلالها على الشباك والغرفة . أحس رطوبـــة البـــلاط،
مقعرا لايزال فى منتصف الغرفة ،رغم أننا قد غيرناه قبل رحيلى . الرطوبـــة
تمنحنى إحساسا قويا بالامتلاء والبطء والركود . كنـــت أكســـل مـــن أن
أتكلم. وأحس خدرا فى ذراعى الذى يحمل أحمد .هاجمتنى الرغبة فى التدخين
مثل وهدة تتسع فى صدرى، وأحس صعودها إلى حلقى بطعم ملحى .

وصل إلى قوله تعالى "**والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين ...**" . حـــاولت
استعادة الآيات معه ...هذا الربع كان حفظه يشق على . عاندتنى ابتســلمتى
وأفلتت .كان يقول دائما أن أصعب مافى القرآن ماجاء فيه ذكر النساء .

- أصعب مافى القرآن ....

لم يلتفت إلى وتابع القراءة . كنت قد أطفأت السيجارة قبـــــل دخـــولى ،
استبدت بى رهبة قديمة . نفس الرهبة التى كانت تهاجمنى كـــل صبـــاح إن
جلست لأقرأ على يديه. أول سنة فقدتها كانت بسبب صفعة منـــــه ، أمـــا
قدمى الكبيرة ، مثار سخريتهم فى النادى، فلم يكن سببها السير حافيا بـــل
(الفلكة) .

ختم قراءته وأدعيته .مسح وجهه بيديه وارتدى الطاقية البيضاء. من جلبابه
الصوف أخرج علبة الدخان وأوراق "البفرة" . لا يزال يلف سجائره بنفسه.
ذهب بصره القليل وآخر ذبالة ضوء لعينه الوحيدة. جفونه ذابلة . وفى عينه
ذلك اللون الأخضر المختلط بالبياض .

- منذ متى لم تختم ؟

- أقرأ ماتيسر.

قال متنهدا وبصوت ضعيف لم أتعوده

- القرآن تسلية القبر.

- فى صدرى منه مايكفى

أرادنى دائما شيخا مثلــه . اقتلعــنى مــن طفولــتى ودار بى فى الكفــور والمسابقات. دون إفطار وبجلباب لايقى لسعة البرد . ختمته علـــى يديــه بقراءة حفص وورش.

- أين تعمل الآن ؟

- فى مديرية الشباب والرياضة

- الشيخ " فتحى البسيونى " سجل فى الإذاعة . اتصلـــت بــه وقلــت أخطأت يامولانا . زعق فى التليفون وقال هيهات هيهات ، لست أنـــا ياشيخ فضل . قلت له لو عندك الشريط انتظرنى . وقبـــل أن أضـــع رجلى خارج الميكروباص سمعت صوته يقول ياشيخ فضل أنت أستاذنا.

اندفع يقهقه فى الضحك . على عناده لم يزل ، هممت أن أسأل عن أخبـــار " نعيم " عدوه القديم . لكن على أن انصرف قبل المساء بل قبل الظـهيرة . كان النبأ فى رأسى وعلى لسانى ،وشأن من يحمل حملا ثقيلا لمسافة طويلـــة وأغراه الوصول أن يزيحه عن كتفه مرة واحدة قلت:

- هذا ولدى.

سكت. اتسعت عينه الوحيدة ودارت حدقتها الخضراء فى كـــل الغرفـــة . ارتعشت جفون عينه الأخرى المقفولة. قطب حاجبيه وتحسس الفراغ .

- صحيح !؟

- ....

- عملتها يابن الكلب ؟

رفع جذعه من على المرتبة يبحث عن حركة ، لم يجدها .مد يده بسرعة فى جيب الصدر العلوى ،وضع النظارة السوداء على عينيه كأنما يداريهما أمام غريب . قمت إلى سريره . أمسكت بيديه السابحتين فى الهواء. وضعت ولدى فى يده .ابتسم ،ومن تلك المسافة القريبة وجدت أنه فقد ثلاث سنات أخرى ،قال بحزم :

- سم أولا.

بسمل وارتفع حاجباه . هز رأسه مرتين . بظهر إصبعيه تحسس خد أحمد.واستبقاهما فوق أنفه وكأنما يستمتع بدفء أنفاسه الوانية . امتلأ صدره بالهواء وبدا مرتبكا وتائها ،يخشى أن يطلق زفيره فيوقظه . مددت يدى لأستعيده .أحس بى فضمه إلى صدره .

- ما اسمه؟

- أحمد

هل حزن لأنه لم يحمل اسمه ؟ سكت قليلا ثم قال

- ماشاء الله ، خير الأسماء ماحمد وماعبد ... ماذا قرأت فى أذنه من القرآن؟

- ....

قرب فمه من أذنه ، كنت أميز من حركة شفتيه آية الكرسى . استعدته منه وعدت إلى مجلسى ،استجمعت شجاعتى لأخبره أننى آن لى أن أنصرف،لكن شيئا غلبنى وأحرجنى ،فوجدتنى أجلس على الكنبة مرة أخرى ،متلهيا بمشهد الحمامة مع إلفها.

- تسع سنوات لم أرك !

- ....

- حتى شهريتك . صرت رجلا وتعيدها كل فترة مع محروس أبو توفيق أنقذتني الكرة . خدمتني الظروف في موسم الانتقـــالات . وقـــع ريكـــا للمصري،وأصيب المعصراني فوضعوا ساقه في الجبس . قال المدرب القاهرى (لايهم . أريدك أن تجرى كثيرا في الملعب . لاأريد أن توزع كرات أو حتى أن تسجل هدفا . أنت أعسر اجر في الناحية الشمال دائما .) لكن التوفيـق ساندني ،فمع كرة مشتركة وقعت وقمت بسرعة لأجد الكرة أمامي .كنـت أجرى فارا من كل أيامي . هل ركنت الكرة يمينا أم يسارا ؟ لا أذكـــــر.. خرجت من قدمي ،ليبقى الفريق في الدورى الممتاز .هكذا نلت خمـــــمائة جنيه ومكانا ثابتا في الفريق.

_ لم أعد أسمع اسمك في الراديو . حسام حسن أكبر منك ولايزال يلعب. الغضروف لم يعد يتحمل ، سافرت ألمانيا وقال لى المـــترجم بينمـــا غـــرس الطبيب عيونه في عيني "عليك أن تختار بين ثلاثة أو أربعة أعـــوام أخـــرى كلاعب أو أن تمشي دون عصا بعد الثلاثين" .

- أدرب ناشئة النادى .

- آه ... الكرة فلوسها كثير على ما أسمع ...زوجتك .

- أرسلت لك ولم تأت ؟

- وفيم حضورى ؟ أنت تركت الأزهر ثم القرآن للكرة . وعلمت مـــن الأغراب بموعد زفافك.

- منعت أمى عن الحضور...

- لم يحدث . قلت لها روحى أنت ...لكن أنا ...حد الله . وصلنى ردك فى خطاباتك .

فى الخطابات قلت كلاما كثيرا . قلت إنه لايحبنى . ويريدنى مقرئا مثلـــه . لكنها حياتى وأنا حر فيها . قلت أيضا لايهمنى غضبك أو قسوتك فلقـــد اخترت حياتى . لعله تأثير آخر صفعة. كانت الصفعة لاتزال ممتـــدة وأنـــا أخطب فتاة يتيمة ومع ذلك تصر أمها على حضور عائلى . لم يكن سهلا أن أقنعها أن أبى قد قاطعنى. تدخل سكرتير عام النادى وقال إن الغد بيـــد الله يهدى فيه النفوس .

رجوته وقبلت يده أن يتركنى أذهب إلى النادى فقال إنه أقسم أن نقرأ الليلة بعد الشيخ نعيم . أخبرته أن القرآن لن ينفد وأن الموتى لن ينقطعوا ونعيـــم ملح المآتم فلماذا التعنت . رد بأنه هذه الليلة سيقرأ فى عزاء ابن العمـــدة . المحافظ والأعيان والسميعة على طول الخط قادمون . (الليلة وبعدها افعـــل ماتشاء) فرصتى فى الفريق الأول . لن تعوض . المباريات لا تكـــون بعـــد العشاء . صفعنى وقال (أتهجر القرآن من أجل الكرة ياخلفة الشـــياطين .) صرخت وأنا أدير له ظهرى. اقرأ أنت هذه ليست حربى.

- كانوا يضحكون فى البلد ويقولون ياشيخ فضل الخطابات موضة قديمـة من عهد الملك وكنت أجيبهم فيه الخير .
- لم تسمح حتى بذكر اسمى فى المنزل .
- خرجت رافعا صوتك على أبيك الضرير .
- تركت له عصاه.
- بل كنت أنت عصاى.

كنت معه فى المقابر كل خميس ، فى السهرات أصحبه فى السفر ويصر علـى أن يقرأ الربع الأخير.

- سألنى عنك مصطفى هل تذكره ؟

فى كفر الأعجر كنت أحس ركودا وتثاؤبا ، كالعادة بعد الشيخ نعيـــم . ذهبنا كعادتنا متسولين قراءتنا . فى الربع الأخير موعدنا انفـــض نصـف الجالسين. وكنت أفكر لعل الشيخ فضل قبل أيديـــهم وارتضـى ثـلاث جنيهات أو اكتفى بالعشاء . كنت أحس احراجا على عكسه من نعيــم . كان يتركنا بتفضل الواثق احتراما لزمالة الكتاب القديمة والكار الواحـــد .وربما أيضا ليريهم الفرق بين مدارج نعيم ومدارك فضل .

قال لأول مرة (اقرأ أنت يا محمد اقرأ عليهم هود). هود ؟ لقد قرأها نعيم فى الربع الأول .نحن فى بلدته . سيقتلوننا لا محالة . ساعتها كرهت نفســى وكرهته وكرهت نعيم الذى قالوا له معتذرين إن الناس فى حـــزن علــى الشاب الصغير فسامحنا. لكن نعيم هاودهم حتى قـــرأ "يابنى اركب معنا" ارتج الجالسون طربا (الله) حتى تخيلت أن رؤوسهم ســـتحطم كلوبـات الصوان .

وأحسست أن عذاباتى والأيام التى تسرقنى ستنتهى لو مات نعيم . سيتوقف وقتها جرينا وراءه من مأتم إلى مأتم ،فى ليل ريفى موحش وغير مســتأنس ، عودتنا فى صمت ،ولمجان ،وصوت تنفس أبى ثقيلا ، خطونا مخذول دومــا بصوت نعيم . (يقف فيما يستحيل الوقف عنده .) استعذت وقلت فى سرى أنت قتيلى. جمعت كل حلاوة صوتى وقرأت . متأكدا أننى سأقتله أو أقتــل " يابنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء

قال لاعاصم اليوم من امر الله إلا من رحم" يابنى اركب معنا . قرأتهــا بــالميم المشددة فالميم أقوى من الباء وأدغمت فى أخرى الباء فى الميم وقلقلت الباء فأظهرتها فى أخرى.(الله ...الله) ..ولاتكن مع الكافرين بــالفتح وبالإمالــة كحمزة (يا سلام ...يا سلام). ومددت الألف فى سآوى حتى تعبت رنــات خيالهم وغادرت عجائزهم المقاعد... "إلى جبل يعصمنى من الما..."وســكت فلم انطق بالهمزة ، ووصلتها فأظهرت الهمزة فى الوصل وأسقطت الهمــزة الثانية ."وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ..."يا سماء أقلعى" كقـــالون وحفص عند الوصل . ياسما ... عند الوقف .كورش أبدلتـــها "وياسمــاؤ واقلعى" . وقبلنى مصطفى أخو الميت وقال فى الميكروفــون صارخــا مــع الصارخين (الله... لو سمعك ياشيخ محمد لكان ركب والله.)

- فضنا من هذه السيرة .
- وأين زوجتك ؟
- فى الخارج، مع أمى .

قمت مستعدا للانصراف . ملعون أبو الواجب .كانت صابرين قد حدثتــنى أكثر من مرة فى الموضوع ،ماطلت وراوغت . حتى كان ذلك اليوم ... يوم عادى أثناء عودتك من عملك. نفس الإرهاق اليومى والملــــل اليومــى ، الطريق المحفوظ يمتد أمام عينيك .فجأة يثقبه ولد فى الثالثة أو الرابعة ،كأنــه مشى فقط بالأمس... يندفع من بين الشجر ويجرى خطـــوات قصـــيرة .لم يستطع السائق ،رغم أنه مال بالسيارة لأقصى اليمين ،وبعيدا قدر استطاعته، مفاداته. فكان الارتطام الصغير المكتوم .

فى لحظة واحدة رأيت وجه ولدى ،رغم أن أحمد فى البيت لم يتعلم الحبو بعد، لكن انقباضا ظل فى صدرى.كانت العربة تخرج من خيالاتى وتصدم الولد مرة أخرى، فيموت. حين أدقق فى الصورة أرى وجه ولدى دائما قريبا جدا من الزجاج .

لماذا فكرت فى المجيء أصلا ؟هل خفت الموت ؟ موتك ، موتى أو حتى موت ولدى . كأن فى الزيارة تحديا أو مهادنة لموت ما قريب . ربما صرخة فى وجهه . لكننى أخطأت فهنا لم أسجل ذاكرة وتاريخا لأى من ثلاثتنا . لقد بتر الزمن بشكل ما شيئا فى كل منا .حتى ولدك النائم ، به جزء مبتور . فلتنصرف.

- هل تحبه يامحمد ؟

رغم تأكيد الطبيب أن الموعد لم يحن بعد ،ورغم العلامات التى حفظتها لها أمها، فاجأها الطلق . وكنت أتمنى سلامتها ...هى فقط .كانت له رائحة الأطفال ولون بنى مصفر . وحين نظرت إليه بدت عيونه لشخص عجوز جدا أعرفه ، بل كانت ليديه كرمشة مزرقة. وكنت فى البداية أقشعر حين يلمسنى . حملته طوال الطريق إلى البيت .وضعته بيدى على الفراش لكننى ما إن عبرت الغرفة حتى أحسست أننى تركت قلبى فى فراشه .

- الرضع متعبون.

يستيقظ كثيرا فى الليل . نتناوب هدهدته حتى يروح فى النوم. لا أعرف هل أحمله بطريقة صحيحة أم أؤلمه؟ فى كل مرة أرتجل طريقة جديدة لدفعه للنوم. أحيانا تكون أمه قد نامت بينما عيونه تلمع وترمقنى، أحمله، أحدثه وحدنا فى الليل ،وأحيانا أظن أنه يبتسم لى . يصبح جميلا حين يضحك.

- يضحك وحده ويبكى وحده .

ضحك وهو يقول:

- آه يعطلك عن امرأتك ...هل تحبه يامحمد ؟

- طبعا.

- كل يوم يكبر ...يكبر همه معه ...وماذا تريده إن كبر . طبيبا أليس كذلك ؟

- مايريده هو...

لكننى ضبطت قلبى يتمناه طبيبا !

- ولو اخترت أنت الطب وقلت له مادمت أباك وأصرف عليك فاسمع لكلامى . ربما تكتشف أنه كان لا يغادر حوش المدرسة . يلعب الكرة ويرسل خطابات مثل خطاباتك . على أيامه لن تكون موضة قديمة . ستصبح من ذكر أهل الكهف والرقيم، فهل كنت ستمزقها؟

- ....

- ولعلك ستبكى ؟

- ....

- لن يهون عليك أن تمزقها.

- ...

- الحق ما أقول لك ، لن تمزقها . ستحتفظ بها جيدا . وتقول ربما عاد يوما ليقرأها .

لم يثق أبدا فى حفظى. كان إذا نسى قال لى محموما افتح المصحف سورة كذا .. لكنه ليلة نعيم قال (نعم افتنهم ياولدى ...افتنهم ياشيخ محمد)

- ....

- حين ترسل خطابات إلى أبيك الضرير فقد فضحته ...لكنه يقربها من أنفه ويقول:

"إني لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون"

- ...

- ولن تبكي . ستقول سأحتفظ بها حتى يقرأها لى يوسف ... فى الدولاب تحت المصحف ستجدها كما هى مغلقة فافتحها.

- .....

- قلت سيقرأها على حين يصبح أبا.

كان أحمد يفتح عينيه. كانت دمعتى ساخنة تبلل وجهه ،لكنه ابتسم وحده، وتمنيت وأنا أعض على شفتى أن يبكى الآن وحده.

كل هذا الحر

أمام الشقة توقفت لألتقط أنفاسي. كان حلقي جافا وأشعر بعطش حـــارق. العرق يلسع لحيتي المحلوقة قبل نزولي مباشرة . سويت ملابسي وتذكـــرت أنها تكره هذا القميص الأحمر. العرق يسيل تحت إبطي. كان الأفضل لـــو ارتديت غيارا داخليا لكني لم أجد واحدا نظيفا .

فتحت أمها الباب وقالت:

- تفضل يابني

انتظرت قليلا حتى انداح الجسد العجوز عن الباب. أعرف شكواها مـــن الروماتيزم ،وأخاف أن تنكفئ. لم تكن تستطيع الوقوف مستقيمة .جلبابهـــا

الكستور فقد ألوانه ويجرجر فى الأرض ..أسمع حفيف قدميـــها الكبـــيرتين حافيتين على البلاط .

- سلامتك

تحرك حاجباها أو ما كانا كذلك ، وعلى حافة شفتيها بدا شـــارب أســـود واضح

- فاطمة أبو البنت جه

الصالون من قماش الجوبلان عليه صور باهتة جدا لروميـــــو وجوليـــت، متسخة، مغبرة. رفعت رأسى إلى السقف، كان عاليا شأن البيوت القديمـــة نظيفا بلا عنكبوت. لم أعد أسمع ضجيج الشارع . المرآة قديمة مكســـــورة وعليها كان وجهى أيضا قديما مكسورا. دخلت فاطمة تدفع نسرين مـــــن كتفيها .على الباب تشبثت أقدام الصغيرة بالأرض . ابتسمت مشجعا لكنها ظلت تعاند أمها وتبغى الخروج . لم تسلم هى وقالت للبنت فى حدة:

- سلمى يا نسرين على أبوك.

ترددت الصغيرة . لم أشأ أن أقبلها ووجهى عرقان . المنديل الورقى الوحيـد تقلص واتسخ. تفتت فى يدى وترك ندفا قطنية فألقيته على الباب . قبلـــت يدها وأجلستها على ساقى .

وضعت ظرف النفقة مثنيا على الفور. بجوار صينية فوقها عصير الليمـــون . كانت البنت تفرك وترفع جذعها باستمرار .انزلقت ومست قدماها الأرض قلت لابد أن الحر وسخونة ساقى قد جعلاها تنفر .خرجت فاطمة وعـادت بمروحة لم تعمل . قالت فى ضجر:

- يوه.. النور مقطوع.

مثل كل مرة ،كانت ترتدى ملابس الخروج .هل هى على وشك الخــروج فعلا؟ أم أن استقبالى لابد أن يكون رسميا . كان وجهها خاليا من المسـاحيق ،تغطى شعرها والإيشارب يفصح عن بكرات الرولو.

- الأرصاد بتقول موجة الحر هتستمر خمس أيام كاملة.

- يمكن يتحسن

- ماافتكرش

فكرت أننا مازلنا فى يونيو ، لقد طال الصيف فى السنوات الأخيرة وأصبـح موسم المطر قصيرا فلا نكاد نبتل.

- ماما حنروح البحر امتى ؟

لم أكن قد أحسنت ثنى الظرف، راح ينفتح فى بطء كالبـــاب المـوارب . تذكرت آخر مصيف لنا قبل الطلاق .هل مازالت البنت تذكره ؟كـــانت وقتها على وشك دخول الحضانة . مرت سنتان إذن. نادت عليها جدتهـــا فانصرفت .

- أخبارك أيه ؟

كانت العجوز ، تحاضن ابنتى بساقيها كأنما ستهرب ،وتمشـــطها . لم يكـن شعرها ناعما. كان جسدها الصغير يميل كله إلى الخلف فى اتجاه العجـــوز . كنت أريدها أن تتوقف. أحس المشط يجز فروة رأسى أنا كلما رأيت عينيها يتسعان ألما . أما فاطمة فكانت تضع ساقا على ساق . كانت ساقها مزروعة الشعر ،مصقولة ،ملساء . فشلت أن أستعيد ذكريات شهر عسل مرطــب بينما كانت العجوز تمسك المشط بيدها النافرة العروق .ترفعـــه فى اتجـاه الضوء وتدقق فيه كل مرة.

عيناى على الساق المتأرجحة باستمرار ، الشبشب يكاد يسقط من قدمــها .رأيت كعبيها مجلوين محمرين . استعدت فى خيالى فتيات الفيديو كليــب ، وسيقان ممثلة فيلم السهرة ،وبناطيل الاستريتش الذاهبة للجامعة كل صباح ..وأخيرا ،عند عودتى، صدر جارتى الثقيل المبتل التى تأخذ وقتا طويــلا فى نشر غسيلها. بعين الخيال كنت أمسك ساق فاطمة بيدى، أوقفها ،أتحسس سمانتها الباردة ،ثم أترك يدى على لحمها اللامع. خلت أننى رغم المســافة أسمع انفجار الحشرة اللعينة تحت أظافر العجوز ،تلك الصفراء ،الميتة كقشر الفستق. اشمأززت وتذكرت أن آخر فراش جمعنا كان ماسخا جدا.

قالت:

- اتأخرت!

- قابلت السويفى فاكراه؟زارنا مرة مع مراته ...

- مش فاكرة.

- مراته كانت حامل...

- افتكرت افتكرت.

أشارت إلى كوب العصير تكثف البخار على جداره وقالت تفضل . الصينية الفضية تقشر طلاؤها فبان كوسخ ، الماء ترك عليها بقعا وأنصاف دوائــر خضراء من اهتزاز يد العجوز . لم أكن أحب الليمون .يصيبنى بالحموضــة وهى تعرف ذلك .لكننى قنعت بملمس الكوب باردا فى يدى

- اسمع يابكر فيه واحد اتقدم لى...

رغما عنى اهتز الكوب . سقط ماؤه على يدى ولم أجد ما أجففها به .

- لو عايز تاخد البنت حقك ...لوسبتها معايا أنا موافقة

- ....
- بس حتسيبها مع مين ؟ السنة دى بقت فى أولى.
- ....
- هو ماعندوش مانع تفضل معايا

كانت نسرين قد اختفت دون أن أدرى .تثاءبت العجوز وحدها بفم خـال من الأسنان . ملامحها وحمة متهدلة اللحم . تدقق النظر فى لاشىء ...الحـر كان ثقيلا لزجا ، والعرق كان غزيرا يئز تحت إبطى . عادت ساق فاطمـة إلى التأرجح .لم تعد تخايلنى . ظلت عيناى على الظرف المفتـوح ككتـاب خالى الأسطر.

– مافيش حاجة حتتم إلا لما نكيف أمورك . اتصل بى وعرفنى نويت عنـى إيه.

لم يكن هناك ما يقال فانصرفت . لكننى فى بئر السلم توقفت .

كانت الخطوات إلى الشارع ضئيلة ومعدودة . الصهد شـديد . وضـوء الشمس ينعكس على أسفلت الشارع ويلمع كالسـكاكين . تلكـأت لا أدرى لماذا ...ربما لأن بئر السلم كان مظلما ورطبا ، رطبا جدا.

يوم مناسب للقتل

لم يكن يوما مناسبا للسفر ، كانت قتامة ذلك الصباح تغرى بالرجوع . منذ أن خرجت من البيت إلا وفاجئنى المطر بقطرات حادة توخز أرض الشارع فى عناد.

المواصلات إلى قريته لم تكن سهلة فى الأيام العادية فما بالك ونحن فى عز طوبة ،حتى السائق بدا لى مثل أحد الطوارق وقد تلفع بكوفية لم تظهر سوى عينين صغيرتين . الطريق كان زلقا ، كادت العربة أن تفقد اتزانها لأكثر من مرة ، معالم الطريق لم تكن واضحة فمساحات الزجاج الأمامية لم تتوقف.

كنت قد تحسبت ألا يتوقف المطر وأن يفر الناس من السيارة بمجرد النزول فسألت وتقصيت عن العنوان .

تحت مظلة الموقف بدا الطريق خال. فقط ،على الجانبين، خطوات مهرولة تثير قطرات الطين أعلى الفخذ وتزداد فى ما يشبه القىء الأسود عند ثنية البنطلون. بعد فترة ميز أهل البلد غربتى فعرض على شاب اصطحابى . وافقت.

كنت أسير معه بصعوبة . أمشى كبهلوان على حبل. يمسك بيدى بين لحظة وأخرى كى لا أقع وتتسخ ملابسى. فجأة أحسست ببرودة فى قدمى . انحبس الحذاء فى الطين وغاص جوربى فى الوحل.

المنزل كان من الطوب الأحمر ولم يكسوه بعد بالكلس. ناديت

– عبد الله ..

كنت أقفقف من البرد وأسنانى تصطك . بدا الرد غائبا ولن يجىء . زادت زخات المطر . السماء امتلأت بسحب رصاصية ثقيلة .لم أجد ما أحتمى به، زعقت بصوت مبلول ضاع فى المطر

– عبد الله ؟

صار شعرى يقطر ماء ، أما أصابع قدمى فلم أعد أشعر بها ، وتأكدت أننى سأصاب بنزلة برد لا محالة. كان الهواء يتحرك باردا، كرماد شفاف تجرى به الريح مجنونة تلسع البيوت وتصفع وجهى وأذنى .

أطل وجه شبحى من قلب البيت ، كان يقف خلف الباب الموارب ويكاد يختفى نصفه . الهواء يلقى بالمطر كيفما اتفق ، أصابت عينى قطرة ثقيلة، قلت:

– الأستاذ عبد الله؟
نزل السلالم القصيرة ، وقال لى وجه خلت أنه يشبهه:
– أهلا وسهلا اتفضل
لم أنتظر الدعوة ، مرقت بسرعة من البوابة .

حين أغلق الباب ، ابتلعتنى فى الشقة عتمة كاملة ، الزجاج لا يعبر منه سوى لون السحب الرمادى ، الأشياء كلها غائصة فى الظل . أخرجت منديـــلا ورقيا بعد آخر لأجفف رأسى ويدى ووجهى .
– لامؤاخذة الكهربا مقطوعة.
ألفت عيناى العتمة شيئا فشيئا ، صارت الأشباح تكتسى ملامحا غير محـددة . وجدتنى فجأة وحدى ، تعجبت من جرأتى . لقد تسرعت بالدخول .ماذا لو كانوا عصابة ؟ سيقتلوننى . . ألح على رأسى خبر قرأته منذ أيـــام عـــن رجل ذبح ضيفه لم أتذكر السبب تحديدا . ولم أعد متأكدا هل الوجه الـذى تراءى لى واختفى هو وجه عبد الله أم لا .أعترف أننى رجل ســىء الظـــن أحيانا. فلقد أنقذنى من هواجسى اندفاع طفلة صغيرة، جرت وتوقفت أمام ساق أختها الكبرى لتنقذها من سقوطها الوشيك ، راحت تمرغ وجهــها فى ركبتيها.
– عبد الله.
كان يقف أمامى بشحمه ولحمه هادئا ومبتسما . بحثت فى عيونه عن علامة ترحيب واحدة ، أنا الذى قطعت كل ذلك الطريق الطويل لمقابلته، فلم أجد
– أهلا وسهلا ماالتشرفناش باسم حضرتك ؟

تلاشت ابتسامتى. كيف يدعى عدم معرفتى . قلت فى غيظ :

– هشام

جلست فى صمت ، لا أعرف ماذا أقول أو أفعل ؟

فى المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة – ذلك الحرم الشيراكى –تنظـــر لـــك الموظفات المصريات بقرف وملل طازجين . لن يتحدثن إلا بفرنسية تمرغت فى العامية وفى الراء الباريسية بلثغة تحسدهن عليها الفرنسيات . ناهيك عن كافة حركات الاتصال غير اللفظى.

تأخير عودة الكتاب إلى المركز تعنى قرارا تأديبيا بالحرمان من الاستعارة. لقد رأيت بعينى ماحدث لمحمود حين ضاعت حقيبته ومعـــها كتـــاب (قـــراءة المسرح) كان فرنسيون حقيقيون يتبادلونه ويسددون نحو صـــدره أصـــابع متهمة ، وأعتقد أن أحد الحرس فى قميص لبنى وبنطلون أزرق ويده علـــى سلاحه كان قريبا منه دائما. بات محمود يهرول ورائهم فى خطوات مذعورة من مكتب إلى مكتب ومن طابق إلى آخر، بل دخل إلى الصندوق الزجاجى الذى تسائلنا دوما من أين يدخلون إليه وخرج..

سليما ربما ! لكن إلى حين ..

ولما تعددت الوجوه الحمراء والشعور الصفراء ازداد شحوبا وجلـــس فى شبه انهيار وذكرنى وجهه بالسيد جوزيف كاف " **المظلوم بالتأكيد لانه دون ان يقترف ذنبا واحدا قد اوقف هذا الصباح** " هكذا كان السيد محمود ينتفـــض كلما سددوا ناحيته إصبعا أبيض،يمسح زجاج نظارته ويغتصـــب ابتســـامة طالبا الرحمة فهو قبل كل شيء جاء واعترف بجريمته.

والآن بعد ظهور نتيجة دبلوم الدراسات العليا ، تحتاج رسالتى إلى مراجـع، وكنت قد توقفت عن الذهاب إلى المركز.كيف أذهب وقد استعرت كتابـا لجولدمان ، أخذه منى عبد الله واختفى منذ شهور ،ولم يدخل الامتحـــان. لامفر.. سألت محمود أخيرا فى مواربة كم دفع ثمنا للكتاب فأخبرنى بفـــرح الناجى

- الحمد لله واحد لقى الشنطة . اتصل بشئون الطلبة وساب لى عنوانه، بعد ما مضيت على ميت استمارة.

وتدارك قائلا فى أسى

- بس حظوظ فى البلاك ليست.

لم يجد فى وجهى تعاطفا . كنت مشغولا بمصيرى . قرار بالحرمان ،حرمـــان بابوى، لفترة يحددها بطارقة غير مرئيين، ولايعلمها إلا الرب . فالسيد كاف ليس مظلوما هذه المرة ، لكن عليه وهذا أضعف الأيمان ...أن يجد عبد الله.

هممت أن أقول له باختصار أننى أريد الكتاب ، لكننى رحت أتأمله .هل من المعقول أننى قد أخطأت ؟ كان يرتدى جلبابا سابغا تموجت ثنياته وشف عن بلوفر بلون أخضر وأحمر وبنطلون ترينج سوت . كان مختلفا عن الصـــورة التى أذكرها له . المشكلة أننى كنت ألوم نفسى لأننى أحيانا أفشل فى تذكـر ملامحه . حينئذ هاجمنى وجه قديم لعبد الله . وجه يطل عليـــك فى صبـــاح إبريلى ، رغم موجة الحر المباغتة ، بينما رئيسة القسم متحمسة فى شـــرح المشهد الأخير من "المغنية الصلعاء". كان وقع الكلمات فارغا ، واليوم كله بلا معنى .بدأ بقصيدة النار تكريما لرجل الإطفاء . وهاهو يكتمل بــ" موش

تابوش ،موش لو شاس ، سكاراموش سانت بيتوش تانا أون كوش" ،كـانت الحروف المتبقية أمامنا تنذر أن المسرحية ستنتهى ولن تظهر أيــة مغنيــة ، لاصلعاء ولا بشعر. كنا عشرة رؤوس ثقيلة تتفرس فى ريفى عرقان، يطــل علينا بوجه حرقته الشمس ولحية نابتة . بحياء وبخوف مطارد قال

_ الدكتورة مارى؟

_ أيوه..؟!

ودخل على الفور .ظنناه يسأل عن موظف وأخطأ الحجــرة ،لكنــه قــال بحروف متعجلة ملضومة

_ أنا طالب فى التمهيدى ، ووالدى كان عيان فى المستشفى

بسرعة باغتت زميلتنا هند ، تقدم حتى كاد يصطدم بركبتيها وأخرج ورقـة مطوية

– دى شهادة من مستشفى الطوارئ إن والدى فى العناية المركــزة وآدى رقم التليفون عشان حضرتك تتأكدى.

– مصدقاك ياابنى اقعد .

كانت هند قد أزاحت ساقيها ولعل الرؤوس التسعة قد شاركتنى سوء الظن لأنه إما غير طبيعى أو بدأ بداية مسرحية تبرر تأخيره شهورا عن الدراسـة . كانت ملامحه مرتخية ، يمسح المكتب والجالسين بنظرة حنان وافتقاد.

أمام الله الواحد أعترف أننى كنت سيئ الظن ولطالما ابتسمت غصبا عــنى لتصرفاته المباغتة . لم يكتب حرفا. لم يناقش رأيا . كان يبدو فى نظرى صورة كاريكاتيرية لديليسيوس حيث وصل أخيرا إلى أتيكا ،والدكتورة بســنواتها الخمسين هى بينلوب .حين أسند يده على ظهرى ، سيطرت على فكرة أنـه

يحسبنى الآن تليماكوس ابنه . اندفعت فى ضحك مكتوم حتى دمعت عيناى.
سددت لى رئيسة القسم نظرة حادة كالمشرط
– آسف يادكتورة . بس كل ما أفتكر أننا شربنا المقلب ومافيش مغنيـــة صلعاء أضحك.
بعد المحاضرة سألنى
– انت أخويا ياهشام . قل لى بقى خدتو إيه؟
رغم سهولة السؤال فلقد بدا عبثيا مثل مسرح يونسكو . لم يكـــن لدينـــا منهجا محددا . صورنا كتبا لم نقرأ فيها حرفا ، وكتبا أخرى قرأنـــا منـــها شذرات . كانت الحرب السرية مشتعلة للحصول على مراجع لايـــهمس أحد باسمها لأحد . كل مانعرفه أن الامتحان سيكون شرح نص شرحا بنيويا أى نص ؟ الله أعلم. مع الأخذ فى الاعتبار أن البنيوية استبدلت الأجنـــاس بكلمة مطاطة وفضفاضة اسمها النص , أما امتحان مادة النقد فهو سؤال عن النقد؟!! حاولنا طوال العام التكهن به ولم نفلح .
كان إفهامه ذلك صعبا ، أما طلبه نقل المحاضرات فكان مستحيلا . ليـــس فقط لأن الدكتورة ترفض دائما التسجيلات وفرنسيتها أسرع من أقلامنـــا ،بل لأن معظم الكلمات بل أبسطها مثل الدال والمدلول المحايثـــة والحقـــل الدلالى كنا نسمعها لأول مرة . كان الخجل يحرج البعض من إظهار ماكتب لتأكده من الأخطاء الإملائية ، أو تأخذه العزة فلا يبادل كـــــره الصغـــير بشىء.
تحت إلحاحه وعجزه عن فهم أبعاد المشكلة ،قلت وأنا أضع فى يده أوراقـــا مصورة وبعض الكتب المستعارة

- الحاجات دى تصورها والمرة الجاية حاجيب لك بقية اللى عندى .

فى الأيام التالية كان على دائما أن أزيح يده من على كتفى ، والغريب أنه عندما تأكد أننا جميعا تائهون ابتسم وقال فى خبث طفولى

- ربنا يسهل

وفرك يوليسيوس يديه كأنما قد ضمن النجاح .

أعترف أنه نال كل الكتب منى . صحيح أننى سيئ الظن لكن بـدا ذلـك السبيل الوحيد لإسكاته . فحين نذكر رولان بارت يسألك فى براءة

- طيب باختصار كده الجدع ده كان قصده إيه؟

أو يقاطعك ليتأكد (هو اسمه ستروس ولا شتراوس؟) وكذلك (سوسير ولا شوسير ؟)

ولأن الأخيرة تعنى حذاء ،ولأنه خريج قسم اللغة الفرنسـية مثلنـا كنـا نضحك، بينما يثبت فى وجوهنا نظرة مستغربة . وقال خالد

- ده غلبان وجاى يلعب فى الوقت الضايع .

من ناحية كان أكبر منا فى السن ، وذلك العام هو فرصته الأخيرة بعدهـا تكون عشرة أعوام قد مرت على تخرجه ولايحق له بعدها التقدم للدراسات. من ناحية أخرى لم يكن قد أعد البحث . موضوع فى النقد التيمـاتيك أى المدارى فى ستين صفحة عن المرأة الزمن المكان ..إلخ فى عمل أحد الكتاب . كنت أحيانا أحس نحوه بشعور طاغ بالشفقة وتراودنى الرغبة أن أصارحـه ألا يستمر وأن يعتذر عن امتحان هذا العام بعد أن عرفت أنه العائل الوحيد لأسرته . لقد سبقناه بشهور ومع ذلك لانضمن شيئا ،لم نكن نمل ســؤال المعيدين أو طلبة الماجستير والدكتوراة عن مادتى الدكتورة مارى وكيـف

السبيل للنجاح فيهما . أقسم البعض صادقا أن السبب يعود لدعاء الوالدين أفاض البعض فى شرح بطولاته . أما الأكثر موضوعية فلقد قالوا جملة مائعة مفادها أن الأمور لن تتضح إلا فى المحاضرات الأخيرة .

كان الضيق يملأ وجوهنا . الرسوب فى مادة واحدة معناه ضياع عامين من البحث . عامان من هم الليل ومذلة النهار . وفوجئت بعبد الله يقول متذاكيا لأحد المعيدين على وشك مناقشة الماجستير

– طيب ايه نقطة ضعفها؟

ضحك الجميع قال البعض صينية المسقعة والبعض الآخر أشياء أخرى فى همس، لكنه ألح فى سؤاله

– قصدى بتحب مين نكتب لها عنه ؟

ورد المعيد:

–ما أعرفش لكن بيتهيأ لى وأكيد كلمتكم عن باشلار .

فى الطريق إلى بيتى حيث كان يصمم على توصيلى دائما استجمعت قصاقيص حكايته . حاول التقدم منذ سنوات للتمهيدى لكنه أصيب بالزائدة الدودية وفاته الالتحاق . تلى ذلك انتظامه بجامعة طنطا ثم اعتذار لم يقبل لدخول أخيه مركز الكلى . رسوب فى العام التالى لعدم استكمال نسبة الحضور وذلك لدخول أمه العناية المركزة .كنت قد توقفت عن استكمال حكايته المنحوسة ، لكنها بدت غير مستغربة إلى حد ما مع شخص مثل عبد الله. وأخيرا قال:

– أصل أنا بحب الفرنساوى قوى .

كان على عبد الله أن يجترح المستحيل وأن يأمل فى معجزة، فيما بدا هو غير مدرك لذلك .كنت أتابع يوميا فرحه الساذج بجمع الكتب وكانت سمرتـــه الغامقة تبدو وقتها مثل قناع يخفى تحته بشرة أفتح ووجها آخـــر . عيونـــه أغلب الأيام مرهقة مكدودة تحيطها الهالات الســـوداء ويزمـــها فى ضـــوء الشمس. دائما نجده فى الكلية مبكرا جدا وعند انصرافنا نتركه فى المكتبـــة ورغم مظهره العادى فلقد اشترى أيضا كتبا أصلية من هاشيت .

لدهشتنا عرفنا بالمصادفة أنه تخرج بتقدير جيد جدا منذ تســـعة أعـــوام ، وكنت ألوم نفسى كثيرا على سوء ظنى بذلك المكافح. فـــهاهو يجلـــس فى حضرة السيدة الأستاذ الدكتور رئيسة القسم – وهى تنظر له بعين الشك – ليعرض خطة بحث (النار فى عمل فلوبير مدام بوفارى) وفى المحاضرة التالية جاء عبد الله بالفصل الأول،ثلاثون صفحة كاملة. بدت الدكتورة مستغرقة فيها ، تتأمله بنظرة عميقة ، وتطلب منه من حين لآخر النظـــر فى نســـخة الرواية لتتأكد من تناصاته. حين سألناه هل عثر على مراجعه بهذه الســـرعة فعلا، أم أن فى الموضوع "بلاجيا" أى سرقة أدبية , لم يزد عـــن ابتســـامة غامضة . ولأنه غير مرهوب الجانب وربما برا بوالديه ، مر البحث من تحت أنف الدكتورة التى طالما أرهبتنا بقدرتها الفائقة على تشمم البلاجيـــا . وإن ظلت نظرتها دائما تحدق فيه وهى تتحسس صليبها ،كأنما تعريه من ملابسه.

فى اليوم الأخير طلب منى ـليوم واحد – "الإله الخفى" للوسيان جولدمـان ، لاأدرى كيف وافقت رغم أننى استعرته من المركز. وتلك كانت آخر مـــرة أرى فيها عبد الله وجولدمان .

- يأم ولاء اعملى شاى للضيف الكريم.

وجلس صامتا فقلت مستغربا

- عبد الله أنا هشام زميلك فى الكلية.

سكت وبقى متحجرا ،بدا مثل نائم مفتوح العينين. وعاد وجه السماء التى لا أراها مكفهرا ، غاص الضوء أكثر وفى عينيه لم يسطع أى ضوء.

- لو سمحت ممكن الكتاب ؟ انت عارف إنه مش بتاعى .

لم يرد وظل على صمته ،نظرت ناحية الباب فوجدت الصغيرة حافية تتأملنى بنظرة فارغة ، فكرت مرة أخرى فى الحادث المنشور فى الجريدة . فجأة جاء قط وقفز بجوار كتفى ، كانت عيناه أول ضوء أراه فى الغرفة . أغمض القط عينيه المشتعلتين وجلس فى حجر عبد الله. تحركت يداه وراحت تمسحان على ظهره فاستكان له فى وداعة

- الكتاب لو سمحت عايز امشى .

- ....

هل ينكرنى هكذا من أجل كتاب . كلماته ما تزال فى أذنى وهو يودعنى

- أنا عارف ياهشام انك الوحيد اللى لو حصل لى حاجة حتسأل عليا. ماحدش عايزنى أنجح.

هل يمكن .. ؟

وقفت مستعدا للانصراف ،دخلت فتاة جميلة الوجه فى السابعة عشر تقريبا، تحمل أكوابا من القرفة تفوح رائحتها بقوة وقالت

- أهلا وسهلا

ورائها مباشرة امرأة أخرى طويلة سامقة . اهتزت الصينية قليلا فى يـــدى البنت . كان صوت الأخرى لا صوتها. تركت البنت الصينية وانصرفـــت .جاء أخاه الذى عرفنى بنفسه وقال:

– فيك الخير ياأستاذ ..عبد الله تعبان قوى وتاعبنا معاه .

قبل أن يقدموا تفسيرا لاحظت المرأة حذائى المبلل فطلبت من عبد الرحمـــن أن يوصلنى إلى الحمام . فى الردهة كنت لاأرى تقريبا . فى مرآة الحمـــام لم يكنّ الضوء كافيا لأرى وجهى. خلعت الجورب وغسلت ساقى ثم الجورب عصرته بقوة وارتديته مبلولا كذلك نظفت بنطلونى. كان لصـــوت عبـــد الرحمن لهجة أشد ريفية من أخيه، حادا ، عاليا ، ذا صدى قـــاس يـــرن فى الفراغ . لقد استيقظ عبد الله يوما ورفض الذهاب إلى المدرسة كـــان قـــد تشاجر مع الوكيلة التى رفضت السماح له بالذهاب إلى الكليـــة لتكـــدس جدوله، هددته فى النهاية بأنها ستعرف شغلها معه ...ولأنها مسيحية فلقـــد شكته للدكتورة مارى رئيسة القسم ؟!

ناولنى الفوطة مرة أخرى لأجفف رأسى جيدا ،وأخبرنى أن عبد الله عــــاد خائفا لدرجة أنه لم يذهب فى اليوم التالى إلى المدرسة . زاد الطين بلة أنه كان وحيدا فى الغرفة مع مدرسة شابة فصرخت بلا سبب . اعتذرت بعدهـا لأن عبد الله لم يفعل شيئا، فكرت فى نفسى – سوى احتوائها بعيونه المظلمة ــ ، وقالت إنها فجأة أحست خوفا فصرخت رغما عنها . كان الموقـــف علـــى وشك الانتهاء، لكن مافعله عبد الله فى حضور الجميع كان فضيحة، لقـــد أقسم أنها هى السبب ...هى السبب وأنه قال لها (لا) أكثر من مرة.

عاد بي عبد الرحمن إلى نفس الغرفة . كانت القرفة قد بردت . راح يرتشف رشفات طويلة ومسموعة.أخبرني أن أخاه في إجازات طويلة بأمر القومسيون الطبي . فتح النافذة على آخرها ،ومد يده إلى بكيس بلاستيك ملىء بالأدوية . كان بعضها بخمسة وثلاثين قرشا .فوجئت بعلبة أقراص ثمنها المطبوع عليها واضح بلا خطأ مائتان وخمسون جنيها . لم أفهم شيئا من الروشتات والنشرات لكنني رغم جهلي تقريباً بالإنجليزية ميزت كلمات مثل اكتئاب أومناخوليا .

كانت ملامح عبد الله قد ارتخت ، وكنت أتصيد لحظة لأستأذن منصرفا فقلت:

– ربنا يشفيه بس كان واخد مني كتاب ، ممكن تشوفهولي حضرتك عشان مستعجل ؟

– لا والله أنت ضيفنا ولازم تتغدى معانا.

اعتذر عن تحقيق طلبي لأن الناس الكبار قالوا إن الكتب التي يقرأها ربما هي السبب فيما أصابه . حمدت الله أنني لم أتفوه باسم الكتاب وقلت

– بس الكتاب أنا مستلفه . مش بتاعي ، لازم أرجعه.

دخلت وقتها المرأة. جلست بجوار عبد الله ، ربتت على كتفه وأمسكت كوب القرفة ، نفخت فيه أولا رغم برودته ووضعته في يده .من الشباك تسربت رائحة المطر. كنت أرى الأرض مبتلة ولامعة ، سكن ترابها وانقبض بينما تناثرت برك الماء الصغيرة. تشجع كلب ضال ونبح ثم مشى في هدوء. وجوه أخرى بعيدة كانت تطل من النوافذ في توجس .

لحست وجهها الريح فقامت المرأة وأغلقت الزجاج بإحكام

– حضرتها المدام ؟

رد عنها عبد الرحمن

– لأ دى الست شوق حماته.

لا أدرى هل استطاع أن يقرأ فى الضوء الكامد الاندهاش على وجـــهى أم توقعه فقال:

– مراته قدمت لحضرتك القرفة .

ابتسم وقال وهو يتابعها

– الأستاذ معذور مانت صغيرة واسنانك مرصوصة زى كوز الدرة .

حين ألفت عيناى الضوء القليل ميزت أنها فى أواخر الثلاثينـــات . كـــان لعيونها المحتقنة نظرة عسلية داكنة لا تشى بالسن. تعصب رأسها فى عقـــدة قوية، لكن التربيعة تخنق شعرا ثقيلا. ظننتها تعانى من صداع أو تتجـــاهلنى لسبب ما . زام عبد الله فى صوت مؤلم فقالت :

– مالك يابا ؟مالك ياضنايا ؟

أحسست بالخجل من نفسى وأنا أراقب نظرات عبد الرحمن ، غير مكترثـة بما يحدث وتتابع جسدها بشهوة ، كانت عيونه تتمسح بركبتها المســتديرة الناتئة التى تبدو واضحة فى الجلباب الأسود الواسع . وهاجمنى سوء الظن . لعل عبد الرحمن يحسد أخاه ليس فقط على زوجته بل أيضا علـــى حماتـه المصبوبة الجسد والذى لا يقارن به جسد ابنتها ذى العظام الهشة . كنـــت أتابع أيضا نظرات الست شوق تتألق أحيانا لعبد الرحمن زاجـــرة . تشـــى باحتقار وغيظ ،وتنظر الآن ناحيتى لأفهم أنها تحتمله لـــ ...لخاطرى ؟!

همست لنفسي أن مرض عبد الله جاء فرصة ذهبية لذلك السمج . يقتحم الدار عند مجيء الضيوف، يدعوهم للغداء ليشاركهم مجانا مائدة أخيه العليل. حين قامت المرأة كان الثوب قد غاص في أردافها فجذبته في رشاقة، وبلمسة واحدة أعادت انسداله .مضت تسند عبد الله وتقوده للخارج وهي تمسك بيديه الاثنتين، فلقد سكب قطرات القرفة على جلبابه. أكد ظنوني كلمات عبد الرحمن المبحوحة بالحسد والشماتة

_ عبد الله كان تم الخمسة وتلاتين وقلنا نسي حكاية الجواز . لكن عقد على ليلى . كل البلد كانت تقول على أمها مناخيرها في السما

لم يكن عبد الله قد تحدث أبدا عن زوجته وأولاده

– جوزها كان يسافر البلد من دول سنة ولا اتنين ويرجع . آخره سافر لبنان وانقطعت أخباره ، قلنا يمكن طفش .سألوا عليه في السفارة ياما . لكن لاحس ولاخبر .. مارجعش. بس لو الخايب يعرف إنها ورثت، وحتة الأرض حداها دخلت كردون المباني ؟ النبي الحبيب كان رجع زحف. ده لو رجع البلد مش هيعرف داره . بس تلاقيه مايعرفش وخايف يرجع .

– عبد الله بقى له قد ايه على الحال ده؟

– تو مامراته ولدت والبنت ماتت . والنبي ده محسود. ساكن بيت مسلح وعروسته حلوة وصغيرة ومقتدرة. دخنا بيه بقالنا ست اشهر على الدكاترة وجبنا له مشايخ . فضل اللي نازل عليه من ساعتها إنه يقرا آيات قرآن والأكادة كلها آيات عذاب ونار وجهنم .

عادت بعبد الله فى جلباب صوف جديد ومكوى .استأنف عبد الرحمن وعاد صوته الزاعق

– بس ساعات ياخويا يبقى عاقل . ممكن يفوق مرة واحدة ويعرفـــك .
امبارح لسعنى على قفاى وقال لى عامل إيه ياعبد الرحمن؟

وغصت برقبتى خوفا من أن يسترد عبد الله عقله .

قالت شوق :

– كان يصحى بالليل ووشه مزرد ، شعره مبلول كأنه خارج من تحـــت طلمبة، وقورته سخنة نار. شفايفه بيضا ياكبدى، ويقول حطى ايـــدك على لسانى . ألاقيه ناشف زى الشوك . يزعق، ويقول ريقى مر، أجرى اعمل له ميه بلمون ..خفنا تكون بعيد عنك الكلاوى .طلعت سليمة .

كان صوتها مخدوشا وله بحة مجهدة وفاترة

– بعد كده بقى ينام متكوم فى شبر من السرير . افتح النور ألاقيـــه لازق ضهره فى ظهر السرير ومقرفص تقولش ديب حينهشه . ويزعق نـــار . فى جوفى نار. أقول لك أيه؟ نسينا ليلى واتلخمنا فيه .

قلت مواسيا وأنا أنظر للصغرى

– ربنا يعوض عليه ، البركة فى أختها .

– دى بنتى لكن عبد الله زى أبوها ،أبوها مايعرفش إنها اتولدت .

كان عبد الرحمن يرشف بصوت مسموع بقايا القرفة .علق الثفل بأســـنانه الكبيرة وبللت شاربه .توقفت عن متابعة عيونه فلقد وجدت نظراتـــه إلى الست شوق تثيرنى، أحس بتوتر ذكورتى وبكراهية مفاجئة لذلك الرجل

– ماتعطلش الأستاذ وروح هات له الكتاب .

قالتها بلهجة حازمة وصوت آمر تقريبا ، ارتبك وقال:

– وأنا اعرف عربى لما اعرف فرنساوى ياست شوق؟

– هاتها كلها والأستاذ يشوف اللى لازمه . يخرج معاك ازاى فى الجو ده؟

لما خرج قالت فى ود:

– خطوة عزيزة ماحدش زاره من الكلية غيرك . ماشربتش القرفة ليـــه ؟ أعمل لك شاى ولا قهوة؟

– ياريت قهوة مظبوط.

– يا حبيبى ياعبد الله . كان حنين حنين قوى . ده هو اللى فلح فى اخواته ،فلاحين خايبين . هو اللى شال همهم بدرى . كـــان بينحـــل شـــغل ودروس . الأول أخوه بفشل كلوى وبعدين أمه بالله أكبر وآخرتهـــا الراجل الكبير . ولساه فاتح بيتهم بحسه . مايغركش شنبه سى عبـــد الرحمن ده قاعد طول النهار فى الدار لا شغلة ولا مشغلة.

وكنت أرى البنت من فرجة الباب – أقصد زوجته – تتقاسم كيســا مـــن الشيبسى مع أختها . تضع واحدة فى فمها ثم تقرب رأسها تلقمها للصغـوة بأسنانها . حريصتان بخوف واضح على حبس صوتيهما وعيونهما تـترصدان الغرفة . يبدو أن الكبيرة قد تذكرت القهوة إذ جرت بســـرعة وعـــادت تحملها بعد قليل .

كان قليل من شعاع الشمس قد دخل إلى الغرفة .بدأت الكتلة الرصاصيـــة تتفكك فى السماء. البنت الآن أكبر مما حدست .جميلة ذلك الجمال الغـــبى البارد. بيضاء ،نحيلة كشمعة . عيناها فى زرقة سماء الصحراء، تمتـــد بـــلا معنى.شفتاها حمراوان حمرة الورد الاصطناعى ،وكل حركاتها تشى بجـبروت

أمها . فكرت (يالها من دمية كبيرة تكافئ بها طفـــلا محرومـــا!) كـــانت ابتسامتها واسعة بلا سبب حين قدمت لى القهوة. قلت:

– سلامة عبد الله ألف سلامة .

لعل نظرة زاجرة من أمها –لم أرها– كسرت ابتسامتها ،أو أنهـــا خجلـــت فجأة من ذراعيها الطويلتين المتدليتين. جمعت أكـــواب القرفـــة الفارغـــة وانصرفت دون حرف.

العتمة تنقشع رويدا رويدا. تحركت السحب فى بطء كالقطيع ، وانســـل شعاع الشمس. الضوء الآن يسقط على الأشياء . قالت :

– قلت حيكون أخو البنات وراجلنا . ده كان زى الفل ، بنتى كـــانت تلميذة عنده ، ماكانش لها سيرة غير الأستاذ عبد الله . اتقدم لها دكتور مش من البلد ، قلت عبد الله ابن حلال وآهى تبقى جنبى .

نظرت فى وجهى وقالت بنفس النظرة الذكية والقوية

– احنا ناس فلاحين وعيلتنا مابيهمهاش فرق السن . كان بينى وبين أبوهـــا عشرين سنة . وعبد الله راجل وملو هدومه كان ييجى الدرس وعينـــه دايما فى الأرض . لما طلب ايدها استغربت . لكن ماعدتش صغيرة . انا اتجوزت قدها بنت ستاشر سنة.

– قال لها أم ولاء!؟

– البنية نزلت ميته ومن يومها حصل اللى حصل، ولما تيجى لـــه الحالـــة يقول لها أم ولاء.هل بت مراته بكرية وياما بيحصل.

وانتظرت منى ردا ، لكننى لم أسلم بأن تهزمنى فلاحة مثلها .ثبت عيـــنى فى وجهها مقاوما نظراتها هذه المرة، وفعلا نكست هى عينيها وقالت:

_ كنت عارفة إنه بيشتكى منها من أيام الخطوبة . كنت أطيب خاطره وأقول له بكره تعقل .وعبد الله طول عمره طيب ولسانه حلو ، حديثه حلو .أيام الخطوبة كان يطلع على السطح ويحكى لنا عن كافة شـــىء المدرسة ..الجيش.. الدروس ، ويمشى وش الصبح .

عاد عبد الرحمن واستغربت يديه الخاويتين.

– محروس فى مشوار . تو مايرجع حنجيب الحاجه.

وقفت قائلا لنفسى (لايهم ..هذا يكفى) لكنهم أقسموا على دعوتى للغداء وقالت أم ليلى:

– أى والله دى تبقى عيبه. بيته لسه مفتوح ياسى هشام ، يعنى لو جيـــت له وهو مش بعافية ، كان يسيبك تمشى من غير غدا ؟

على المائدة كان الطعام كثيرا وكان عبد الرحمن يلتهم دجاجة لم تول مـــن يده . تولت أم ليلى اطعام عبد الله الذى راح يمضغ فى آلية . بينما يعلم الله أى نار تشتعل فى رأسه .

كنت أحسه الآن غريبا عنى ، كأننى يوما لم أعرفه وقال عبد الرحمن بغتة:

_ ماناخده ياست شوق للشيخ عبد الجيد .ده صيته واصـــل لآخـــر الدنيا.

نظرت إلى فلم أهتم .

_ بلاش تبهدلوه . انا طاوعتكم لما هم اللى جوله . خليه فى داره.

قال:

_ آهو الفرقان برضه بيتعلق بقشاية ..ويمكن

كانت تجلس فى مواجهتى . حاجباها فى الجبهة الضيقة مستديران كالقباب ، ناعمان ،موفورا الشعر، يتشعبان من المنتصف كالفرشاة ويغدقـــان علـــى رموشها الثقيلة الوارفة. حين تميل بوجهها أو تنحنى أرى رمشيها يتقوسان إلى أعلى ويلقيان على عينيها تلك الكبيرة الواسعة ظلا آسرا.

نظرت إلى الحائط وهى تقول:

– زمان ..زمان ، كنت أعرف بنت زى القمر . ضحك عليـــها جــدع وفاتها وسافر . العرسان كانوا على بيتها طابور . غلبت من قولـــة لأ ، لكن أهلها قروا فاتحتها غصب عنها .مرة .. طفشت ، ومرة.. دلقــت على روحها جاز ، فى الآخر ساقت فيها وعملت شغلة العفاريت . أمها وأبوها داخوا بيها على المشايخ وخبوها عن الناس .

كانت خدوش نبراتها تلتئم وكأن سخونة الطعام قد عالجت نهايات كلماتها

– أمها لونها انطفى وقلبها اتحرق ، إلا فى يوم كانت قاعدة لوحدها معاها فى الدار ،تبص تلاقى ضناها شعرها منكوش وقاعدة فى الشمس يـــهف على وشها الطير . جرجرتها من شعرها وقالت لها (فهمينى يابت بيكـــى ايه ؟) جت تسوق شوية العفاريت بتوعها ،إلا وأمها تنزل على وشـــها بقلم يهد حيطة وقالت (مش حاكل من الكلام ده) قررتها لحد ماعرفت كل حاجة . عارف أمها عملت أيه ؟

لم أعرف أينا تسأل .توقف عبد الرحمن عن المضغ وكان رده على الســـؤال أن تجشأ فأثار قرفى

– أول حاجه قالت فى سرها الحمد لله بنتى ماراحتش منى ، وقالت للبنت اكفى على الخبر ماجور ، وربك على الصبح يدبرها . راحت لجـــدع

ابن حلال وسألته لساك رايدها ؟ قال آه . قالت له اتوضـى وحـط
ايدك علي المصحف الشريف تحلف ماتخرج كلمة من بقك . قرت معاه
الفاتحة على كده، وراحوا للشيخة فضل.

كانت تتمهل فى حكايتها كأنها تقرأ سطورها بصعوبة مـن علـى الحـائط
وقالت:

– الشيخة برضه كان صيتها واصل لآخر الدنيا . كان لابسها عفريـت
حسه خشن زى الرجالة وقالت لهم الشيخة ماقلت لكم العفريت مـش
حيطلع من جتة البنت إلا من حتتين لا من عينيها لامـن عفافـها..
اختاروا. أمها صرخت خدوا نور عينيا وسيبوها ياسيادى .القصـد ..
ليلة الدخلة كانت هى والشيخة مع العريس وأمه حوالين السـرير .
الشيخة عمت عينيهم بالبخور وملت ودانهم بالكلام .. وأم العريـس
كانت حتسورق من الحضة . المهم عزمت الشيخة وخرجت العفريت .
وادت بسلامته -فى ايده - منديل الفلاح. خرج بيه وسط الزغـاريت
وضرب النار.. ساعتها مدت أمها ايدها فى المنديل وراضت الشـيخة
بزيادة .

قال عبد الرحمن وكأنه يشهدنى :

_ صحيح إن كيدهن عظيم .

بينما نظرت المرأة إلى عبد الله وكأنما اصطفته هو بالحدوته .

كنت مندهشا كيف تحكى مثل هذه القصة لغريب ، لكننى قلت هذا يـوم
أغرب وبيت استثنائى .وكنت أرى فى حركات يديها ثقة ورشاقة ابنة عـز
قديم . عكس أصابع ليلى الجافة ،كانت أظافرها -شوق- كحبات اللـوز

المقشور ،مقصوصة وتحيط مع ذلك فى الحناء بلحـــم الأنـــامل . أصـــابع جميلة،طويلة، ممتلئة عند اتصالها بالكف . يدها وهى تضع الطعام فى فم عبـد الله يتكدس لحمها حول عظام متناسقة ، حين تفرك أصابعها يأخذ إبهامها مع باطن كفها شبه المغلق شكل عصفور شبعان ممتلئ البطن.

دون شاى ، صرفت عبد الرحمن مرة أخرى وقالت :

– نطلع شقة عبد الله عشان مايشوفش الكتب.

وفكرت فى عبثية الموقف ، فالكتاب الآن قد صدرت فتوى من أهل البلـدة بعدم قراءته وحبسه فى القمقم مثل آيات شيطانية متحققة .

كانت قد سبقتنى إلى أعلى السلم بعود راسخ ، وقامة شامخة تلقى ظلالهـــا على العين والقلب ، تكاد تتعثر فى ذيل جلبابها فترفعه وتكشف ، غير مبالية بى، ربلة ساقها الممتلئة وعرقوب زخم.. وافر.. ملفوف.

الأثاث لم يكن يفتقر إلى الذوق قالت وهى تخطر أمامى

– كله من خير الأستاذ .

ورغم ما فى عيونها من حزن أصرت أن ترينى كل أرجاء الشقة . قـادتنى إلى غرفة وضع عليها قفل حديث وفتحت الباب ،وأعتقد أنها رغـــم جرأتهـــا وحكاية الشيخة ،قرأت فى سرها شيئا من القرآن . كانت غرفــة مكتـــب واسعة أنيقة . الأرفف من خشب بنى ، بامتداد الجدران الثلاثة ..خاليـــة . سوى من مصحف الملك فهد الأزرق والأجزاء العشرة لتفسير القرطـــبى . على المكتب أقلام مرتبة وأدوات مكتبية معظمها ألمانية الصنـــع . وطقـــم مكتب كامل من جلد الثعبان . رزمة ورق تكاد لم تمس ، وفكرت أن أحلام

عبد الله كانت فى ملتها . كانت الأرفف خاوية تفتح فمها تبغـى المزيـد . ورأيتها تملس بيدها على المكتب كأنما تتبرك بضريح أو تفتقد ريح عقل عبد الله .أشارت إلى الكنبة الجلدية وهى تقول:

– كان بيذاكر هنا طول الليل وساعات يمدد على الكنبة دى.

حين وضعت يدها فى وسطها كان بطنها هضيما عكس الفلاحات وكأنهـا دون قصد تقف أمام رسام ، كنت أحس ببوادر صداع ،والغريـب أنهـا داربت الباب حتى كاد ينغلق .حين استأذنتها فى التدخين ابتسمت وكأنهـا تذكرت زمنا جميلا فقالت:

– اتفضل . ياما كنت ادخل عليه الأوضة ألاقيها مشبرة دخان وأقول لـه جرى إيه ياعبده انت عندك خبيز ، وأنزل من عنده وهدومى ريحتـها سجاير .

اتجهت إلى الشباك ، كانت توليني ظهرها فيما كنت أحس بتعب فى مفاصلى وانتفاض أعلى فخذى ، رغم أنى لم أمش اليوم كثيرا . كـان جسـدها فى الجلباب الواسع راسخا كصخرة تعترض مياه نهر هادىء تحتها مع الزمن فى رهافة ونعومة. قالت:

– عبد الرحمن وصل.

قمت بتثاقل أنظر من الشباك ، من الخارج قطرات المـاء تنسـاب عليـه كالدموع . مسحت بخار أنفاسها بكفى لأشاهد عربة كارو تحمل كراتيـن غطيت بمشمع أكياس سماد وتبادل عبد الرحمن والعربجى الصعود بهـا ، لم أرهم يدخلون من الباب . للبيت إذن مدخل خلفى . كانت كراتين الكتب ثقيلة لدرجة أن عبد الرحمن كان يلقى بها سبب البلاء فى عنف وبراحـة

التخلص من لعنة . على قدميه آثار طين طرى ، استغربت من سلطة تلـــك المرأة التى تجعله فى عز المطر يكترى عربة ويحمل كل هـــذه الكتـــب مـــن أجلى.أحسست بالذنب والتقصير لأنى لم أعرف عبد الله كما يجب ، وبأننى لا أستحق سخاء هذه المضايفة .وقف عبد الرحمن ينهج ، فاستحييت بعـــد كل هذا الجهد ألا أبحث عن إلهى الخفى .

فى الكرتونة الأولى اكتشفت عددا هائلا من القواميس وكتب الأجروميـــة وتاريخ اللغة وشرائط كاسيت وفيديو عديدة لتعليم الفرنسية . كان مدرسا مجتهدا إذن .لكننى بعد تلك الكرتونة ذهلت ، ونسيت بعد قليل عم أبحث . لقد فوجئت أنها جميعا كتب أصلية أعرف جيدا ثمنها المرتفع ، معظم أعمـــال الكلاسيكيين كورنى.. راسين ..موليير ..بومارشيه ..ماريفو .عدد كبير جدا من روايات القرن التاسع عشر بلزاك ..فلوبير ..زولا..بروست . أعمـــال سارتر وكامى وجينيه وأنوى وسيمون دى بفوار . تقريبا كل كتاب مسرح العبث والرواية الحديثة ، بل دواوين شعر من عقابات هوجو وأزهار الشـــر لبودلير وفصل فى الجحيم لرامبو وخمريات أبولونير حتى أعمال الســـرياليين ريفيردى ،جاك بريفير، أراجون، ايلوار .بل حتى كتبا حديثة لمونديـــارج، لوكلوزيو، آنى ارنو والطاهر بن جلون .
كانت الكتب تعلن عن نفسها .لم تكن فقط لتملأ أفـــواه تلـــك الأرفـــف العجوز المفتوحة ، بل كانت تتجاور لتصبح مكتبة قيمة . كيـــف ومـــتى امتلكها ؟ انها تفضل مكتبة القسم ، فيم كان بقاؤه فى المكتبة . وتذكـــرت أنه كان يبقى مع معاجم الأدب فقط وتلك سعرها بالآلاف . سألت

- اشترى ده كله امتى؟
- من يومه ياأستاذ هشام . من وهو فى أولى كلية . كان يـــاخدنى معـــاه معرض الكتاب ويقول إلفع ياعبد الرحمن .

وبدأت أقر صفحات الكتب . كان بعضها مصفرا وبعضها جديدا ، أقلها لم يمس ، لكن أصابعى ميزت استعمال أغلبها .كانت سهلة الفتح .فى الكثـــير منها وجدت خطوطا تمتد تحت فقرات وإضافات بقلـــــم رصـــاص بهـــت لونه.تسربت الرطوبة للخط النحيل فبدا شبه غائب وأحيانا بلــــون أحمـــر يضرب للبنفسجى أو أزرق فاتح جدا .

(الملعون لقد خدعنى)

لكن الخديعة لم تكتمل ، لقد صفعتنى كتب النقد والدراسات الأدبية بـــدءا من أعمال سانت بيف ، لانسن وحتى تودروف وجيرار جينيت .. مــــارى بونابرت ..جوليا كريستيفا ..رولان بارت ..لاكان.. شتراوس .. سوسير. وطبعا جاستون باشلار كاملا. تذكرت بحثه فاخترت "التحليـــل النفـــى للنار" واقتربت من النافذة مقتنعا ببقايا النور الربانى وأجهدت عينى لأقـــرأ أى خطوط وضعها الشيطان فوجدت خطوطا متميزة تضينها عبارات تتوهج وتلسع رأسى "**ما الحب إلا نار منقولة وما النار إلا حب مباغت**" " **والموت فى النار هو اقل ضروب الموت عزلة إنه بحق موت كونى**"

لم أكن قد قرأت الكتاب من قبل ، أعجبتنى العبارتان فرحت اقرأ

" **والنار فى اغلب الاحيان متاع مسروق وإن عقدة بروميثيوس موزعة على جميع حيوانات الخليقة وسارق النار هو غالبا عصفور او حيوان صغير** "

كنت أقر الصفحات وأقرا أساطير فريزر التى أوردها عن ارتباط المرأة بالنار، وكانت خطوط عبد الله تحت " **فيثب عليها . ويقول انه سوف ينلها إن لم تكشف له سر النار . وبعد محاولات عديدة للإفلات منه .ترضى بأن تكشف له سرها .فتجلس على الأرض وفخذاها منفرجتان . ثم تمسك الجزء الأعلى من بطنها فتهزه هزا شديدا تتدحرج على أثره على الأرض كرة من نار صادرة من المجرى التناسلى** "

وقالت المرأة وهى تنهر عبد الرحمن عن الجلوس:

– انت حتفضل واقف؟ انزل . ماتسيبش أخوك لوحده

كانت تعطى ظهرها للنافذة ، بينما أقرأ أنا فى عناء شديد فى الضوء الشحيح

"**هذه النار ليست هى النار التى نعرفها اليوم فهى لا تشعل لأن هذه الخصائص قد فقدت منها عندما اعطتها المراة للرجل .. ومن اجل ذلك قام بجمع القشور والفلفل الأحمر الملتهب فاستطاع بواسطة ذلك كله وبواسطة نار المراة ان يضرم النار .**"

"**...وفى حالات كثيرة يكون خلق النار متصلا بعنف مماثل . فالنار هى الظاهرة الموضوعية لغضب داخلى**"

هذا رجل يعرف ماذا يقرأ وكيف يقرأ ؟ وحين وجدت كتب الكلية لم أندهش . كانت الدكتورة قد قررت فى النهاية كتابين صغيرين وأفردت لهما وقتا طويلا: قصائد لإيلوار وكتيبا فى النقد .وكنت أتصفح هوامشه على القصائد وبالطبع كان بينها قصيدة **Tu es venue** وقد ترجمها "لأنك يا حبيبتى أتيت "

فى كتيب النقد وضع عبد الله خطوطا خمسة تحت خمس جمل .كان ثالثـــها السؤال الذى لم نكتشفه إلا صباح الامتحان بجوار مقعده الشاغر . جملـــة سانت بيف "إن الناقد هو من يعرف كيف يقرأ وكيـــف يعلـــم الآخريـــن القراءة" زادت عليها الدكتورة طبعا كلمة "علق" وأضافت علامة استفهام . كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة ولم أبحث عن الإله الخفى. كنت وقتـــها أكره ذلك الرجل ذا الخمسة والثلاثين عاما من كل قلبى وأتمنى مـــن الله أن يكتمل عقابه بصاعقة تنقض على رأسه .

وسألتنى :

– هى الست دى مفترية ؟

تعجبت فرنيسة القسم سيدة طيبة تصوم الأربعاء والجمعة ، على مكتبـــها صورة لها فى شبابها تذكرك بقديسة، قلت:

– أبدا ، ومالهاش علاقة طبعا لا بالمدرسة ولا .. حضرتك عاقلـــة هـــى ساكنة فى مصر وماتعرفش حتى اسم بلدكم.

– بس القبط بينصروا بعض ياسى هشام . منها لله . السنة دى قـــال لى ياشوق كفاية دروس، آن الأوان مرة أعمل اللى أنا عايزه . أبويا ربنـــا رحمه ورحمنى يبقى أرجع الكلية . ماكانش يجيب غير سيرتك وســـيرتها ويقول ست غويطة إنما انت كان يقول عليك هشام ابن حلال جـــدع صغير .

كانت الكتب تملأ الأرض ،وكانت شوق تتحرك حولى فى الحـــيز الضيـــق فنتلامس أحيانا ،كادت تسقط فاعتمدت على، غاص إصبعى فى نهدها الرابى من غير قصد، فأثارنى ذلك الاحتكاك العذب " هذا الاحتكاك الكهربى يخلـــق

فينا دغدغة صادرة عن نعومة لذعات النار بقدر مايحدث من خلخلة وتجمع لروح النار فى مكان الاحتكاك "

بمرور الوقت كانت أنفاسها تملأ الغرفة .أحس سنها يتناقص عاما وراء علم وتصبح امرأة أسطورية. قالت:

– كنت بأشوف الفرحة تتنطط فى عينيه وهو داخل المكتب وبيول مع أدان الفجر. أدخل له بكباية شاى ولاسندوتش يتقوت بيه . أصله قدام الكتب كان ينسى نفسه وساعات أبوس ايده ياكل له سدر فرخة أحطها له فى لقمة ولاحبايتين فاكهة ،أو حتى يفرد ضهره على الكنبة.

ساعتها كان يصعب عليا ويبقى نفسى أولع له صوابعى العشرة شمع.

وكنت أبحث الآن وبسوء ظن عن موقع زوجته من الحكاية . رجل يسند رأسه على صدرها فى جنونه ، تسهر حتى ينام ، تراه فى كوابيسه ، يحكى لها عن أحلامه ومارى لويز وهشام .فكرت فى رجلها الغائب، الخائب كما يقول عبد الرحمن ، لم تكن له أى صورة . لم يترك أثرا فى البيت . كنت فقط أرى نار تلك المرأة ورماد عبد الله.

كانت تنظر إلى صورة زفافه ، فأخال كل أهدابها ترتعد كأن شيئا يلدغها ولا تقدر على هشه ، ألم ما فى وجهها ، عيناها تحتضنان صورته ودمعة أحسستها ساخنة وملتهبة ،تحتمل أهدابها جمرها ولا تتركها لتسقط فيما تعض على شفتها حتى كادت تدميها .

– ليلى صغيرة ، يادوبكش اتجوزت تالت يوم بعد امتحان الدبلوم. كنت عارفة انه بيشتكى منها. عقلها صغير زى أبوها ..ياما كنت أعلمها

وأرسيها..أضربها حتى لحد مايقول لى خلاص ياشوق معلهش.. لكن هو قال لك ايه؟

وأدركت السبب فى بوحها وصرف عبد الرحمن فقلت محـــاذرا أن أفضـــح جهلى

– عبد الله طول عمره عاقل ..كان برضه بيعذرها ويقول فى حقك كـلام طيب

– والنبى ؟! قال لك إيه؟

كان الكتاب لايزال فى يدى ، سبحت أبخرة الصداع فى رأسى ووجدتـــنى أعيد بالفرنسية الجملة الأخيرة التى قرأتها .

– *"قل وداعا لحياة الناس واتبعنى إلى عالم الاشباح"*

أى رعب ارتسم فى وجهها.هل فهمت ؟هل سمعتها منه يوما ؟هل..؟

صارت تلك العيون لأول مرة تخافنى .ترتعش وتبحث عن أشياء بعيدة بـــل اعتقدت والهلاوس تعربد فى رأسى أننى أستطيع لحظتــــها – إن أردت – أن أنالها نكاية فى كل شىء . كنت أشعر بثقل وامتلاء فى معدتـــى ورغبـــة فى القىء ، عندما صرخت فجأة

– عبد الله؟

كان يقف على الباب ، منوما دخل إلى الغرفة يسبقه القط . سقطت أخـــوا تلك الجمرة على خدها وأمسكت بيده. أجلسته على الكنبة ورأيت الأيدى تدب فيها الحياة . كانت أصابع تلـــك المـــرأة تعجـــن أصابعـــه فى رقـــة غريبة.أحسست يدها دافئة فى يد عبد الله بل سرى دفئها فى الغرفة الرمادية

الكآبة .كانت رأسي دائخة وأحس بطنين وسخونة الحمى لكنـــي رأيــت اشتعال عينيها .نار صفراء اشتعلت مرة واحدة ونادت بصوت عميق مكتوم

– عبد الله ؟

كأنما تستنقذه من بئر بكل روحها .كان غطاء رأسها قد انزلـــق فـــاندفع شعرها المدهون بالزيت وفاض لزجا على كتفيها كموج من القار يكســـو الغرفة .أشباح من طحالب تتحرك أمام عيني حتى ترقرقت عيون عبـــد الله وتحركت كلهب وان لشمعة لم تستكمل اشتعال فتيلها . يبكـــي وتمســـح دموعه . حاضنت يداها وجهه وأنامته على صدرها فى شـــهقة . نهداهـــا ينضغطان. رأسه يغوص فى زخم ذلك الصدر الصلصالى ،ويكاد ينطبع عليه جانب وجهه . تهدهده بصوت عجوز رطب .

اندفع صدرها النافر إلى الأمام متشنجا ،يعلو ويرتفع . يجاهد أن يكتم شهيقا له صوت الفحيح، عندما انزلق رأسه حتى بطنها صرخ صرخة هائلة وهـــو يدفعها بلا رحمة .

– جر......ام

أجال رأسه فى وجهى والكتب والأرفف والكنبة وصورة العرس . كنـــت خائفا من نظرته والبرد يزحف من أقدامى ، يزحف كثعبان كان لابـــدا فى العتمة ،أصابته النار المحتضرة لتلك المرأة فخرج من بياته ويلدغنى .

كانت يد عبد الله تمتد إلى عنقها وأنا أشعر بغثيان وكابوســـية ،وأتمـــنى أن تكون تلك الأشباح مجرد وهم أفيق منه بعد قليل .

لم تصدر صوتا . كان عنقها يتضخم بين أصابعه وتبرز عروقه ،عيناها تمتلئان لاشك بلون الدم، عيون مستسلمة وعاتبة . لكنها مـــن حـــلاوة الـــروح

نشجت وراحت أصابعها تقاومه . الحمى تئز وتقرقع فى رأسى ، تتـــأكلنى مثل ورقة شجر جافة ..أحترق.. أحترق.

.. حين سكنت العصفورتان البدينتان ،كانت الأصابع العشرة قد تبـاعدت متشنجة، كحراب رخامية باردة. أغلق القط عينيه ، ماء بصوت خفيـــض وتسحب للخارج ورأيت بصعوبة مارى لويز تنظر نحونا فى جزع. ترسم فى الهواء صليبا التصق بى فلم أتحرك ،تقرأ باشلار وكأنه كتاب صلواتها.

تغلق الباب خلفنا ،وهى تنظر إلى الأرض، وأسمع وقع خطواتها تمضى.

وكانت النوافذ مغلقة

-١-

غريب جدا أنها اليوم بالذات تدخل وحدها مكتبه، ترفع كل أقنعة الطفولة عن وجهها ،وتخبره أن أكثر شيء كان يضايقها أنه كان يخطئ في اسمها دائما. تسأله ألم يتمن شيئا مستحيلا في حياته . تخبره أنها في العادة لا تنلم كثيرا تحب الليل ، لكنها في أيام أخرى تلوذ بغرفتها وترشو النوم بأى ثمن لتتخلص من ذنب ،صدمة ، أو نهار كئيب. غريب جدا أن تنظر في عينيه مباشرة قبل انصرافها وتخبره أنه إنسان جميل ...

منحها يدا باردة ، لحظتها انقطع التيار فنظرت مثله إلى التكييف . الأغرب أن تتلكأ هي في انصرافها ، وألا يشكو هو الحر الذى أحاطه بسحابة كثيفة من بخار فاتر فدافئ فساخن ، وأنه كان سعيدا بالدفء .

أين ....؟

في قدميه بالتأكيد .ومالغريب في ذلك ؟

لاشيء ...لم تتزوج بعد ، مازالت مترددة تفاضل بين أكــثر مــن عريـــس وتبحث عن عمل...تفاصيل كثيرة لست فى حاجة إليها .

لماذا جاءت إذن ؟

هل لتنتقم من صمتك القديم ؟ ...ربما .

لا تفرط فى الثقة بنفسك، ربما المصادفة وحدها جعلتك أنت بالذات تقع فى الطريق إلى نزهة أو حتى إلى موعد غرامى. ولهذا حشدت كامل أناقتها وهذا العطر المدوخ. على أية حال لم يعد ذلك يهم . راهنت على أخرى وانتــهى الأمر ، لكن اعترف أن ظهورها فى مجالك يربكك ، وأن وجهـــها يطفــو كوردة فى ذاكرتك دون ميعاد ، وأنك فكرت أكثر من مرة أن تهـــرع إلى بابها.

_ أنت لم تتغير!

تحاول استرجاع ذات الملامح قبل سنوات . الآن أصابها امتــــلاء قليـــل . تغيرت تسريحة شعرها وتشى زينتها بتحقق أنوثتها. تدور الدبلة فى إصبعك، تضع عباءة الخاسر بلا ضغينة ،فما كان قد كان .

لتسلم بهزيمتك. لعل أجمل الأيام لم يأت بعد ، حتى لو لم يأت أبدا . لا يهم. تسألك فجأة:

_ أنت سعيد ؟

لا تنتظر ردك وتخبرك دون أن تنظر ناحيتك

- المشكلة أنى أفكر فيك كثيرا .

تثبت عينيها فى وجهك قلقة متألقة رائعة . هكذا تستعيد كل ذنوبك – تلك التى لم تحدث — وتلك القبلة التى كانت ممكنة ومؤجلة لثقتك فى النصــر. لكنها أيضا لم تحدث.

-٣-

نعم كانت بالتأكيد جميلة وكنت مختنقا بمجيئها المتكرر الذى يبدو دائما بــلا سبب .أمسكت يدها بلا هدف سوى رغبة طفل أن يلقى حجرا فى ميـــاه بحيرة راكدة سأم من مراقبتها له . كيف ألقت رأسها على كتفـــى ؟ لمــاذا ارتعش الزغب الأصفر على شفتيها لمجرد إحساسها بدفء يدى وارتعاشها؟ علامتا استفهام ليستا أقل من تلك القبلة . فبلا خوف وبلا دقات إضافيـــة للقلب ملت على شفتيها. لكن ما إن لامستهما حتى فكرت وماذا بعـــد ؟ هل أرفع شفتي وأواجه عينيها ؟ أم أنتظر حتى تتجمد المياه ويلفظنى النـهر . لكن شخصا آخر ، كان بالتأكيد يشبهنى ، خرج منى وظل يراقبـــنى مــن أقصى الحجرة . خجلا وخائفا أن أنظر باتجاهه ،خاصة وأنه قـــد لبـــد فى الركن. بالكاد أراه بطرف عينى . نظراته تلدغنى فأزداد ولوجا والتحامـا فى مياهها المضطربة ...وعندما أحس هو بعضلات عينى المشدودة على آخرهــا لا تطاوعنى أكثر من ذلك وتنسدل . استغل انغلاقها وانصرف. ابتعــــدت ذاهلا، لأجدها نصف عارية . تضع يدها بسرعة على وجهى وتبحث عـــن بلوزتها ، فيما كان عرق خفيف يشبه الندى ، باردا بعض الشىء ودهنيا إلى درجة ما، ظل يحتفظ -حتى بعد انصرافهاــ برائحتها وملمسها على بـــاطن يدى الخاليتين تماما.

عصافير القدس

-١-

رغم تأكدى من اشتعال مظاهرات طلبة القاهرة تضامنا مع انتفاضة الأقصى، اضطررت للمجيء لاستكمال أوراق الماجستير.أمام كلية البنات،كان الرائد يهز جذعا رشيقا رغم بدانته .خلفه أربع عربات مصفحة تطل من نوافذها الضيقة عساكر الأمن المركزى .أقترب من جسده الطويل الضخم - المحشور فى بذلته الرسمية السوداء- وأزداد إحساسا أن عيونه ترصدنى .أتأكد فى ذهنى أننى لم أنس بطاقتى الشخصية أوالكارنيه، أخفف من وقع أقدامى على الأسفلت حتى أتجاوزه .

على الباب يستوقفونك طويلا . فى الداخل لا تقابلك الجلبة المرحة المعتـادة لطلبة الجامعة، بل خطوات متكاسلة ، أصوات خفيضة ،وجوه راكـــدة . بنات.. بنات فقط .أشجار لا تجد من يستظل بها وتفتقـــد حيويـــة جمـــع مذكر.واضح أن الغضب الساطع لن يأتى.
هكذا وجد الضابط الأمور أهدأ مما توقع ، فعند خروجى ،كنت أراه جالسا وقد خرجت له من محل الموبيليا ترابيزة صالون مذهبة ،وضع عليها بجـانب اللاسلكى والمحمول ونظارته البوليس وعلبة سجائره الأمريكية ،كيسا ورقيا يكتظ بسندوتشات الهامبورجر ومشروب الكولا التقليدى. كنا فى الثالثـة وكان الباشا يأكل فى نهم ،حتى أن النسر النحاسى كاد ينقض من على كتفه لينتش قطعة من اللحم . أما العساكر فى الزى الأســود الكـالح فكـانت رؤوسهم الحبيسة تتجاور ،وتبدو من فتحة العربة الضيقة وهى تراقبه بوجوه تأكلها أتربة الانتظار . أحســت أنا المغادر ،حين رأيته يتوقف ،ويتحســس بحركة لاشعورية المسدس المعلق على جانبه، أنه الآن يخاف تلك العيون ،وأن الغضب المكتوم قد يسطع فجأة ويأتى من عيونهم الفئرانية الجائعة وليس من ناحية أنصار منع الاختلاط .

-٢-

كنا فرحين فيه بالتأكيد ،هو موجه لغة عربية لكنه يستغل فرصـــة زياراتـــه المتكررة للمدرسة ليسطو على دفتر الحضور ويرسم علامات خطأ حمـــراء أمام أسمائنا . فى طريقه يمر على الفصول ليبدى امتعاضه من صوت الفصـــل العالى ويطلب كتابة التاريخ بالشهور العربية . بسببه توترت علاقتنا بمدرسى اللغة العربية فليس من سلطته منعنا من التدخين فى الحجرة . كما أنه يـهدد

بالتحويل إلى التحقيق كل من يدخن فى الطرقة ويزجر من يتبادل منا حديثـا مع طالبة . برر الزميل الدرعمى ذلك بأنه أقلع منذ سنة عن التدخين أمـــا زياراته المفرطة للمدرسة فلأن وحيدته سوسن طالبة فى أولى أول .هكـــذا صرنا نكره سوسن رغم أن معظمنا لم يرها.

كالعادة كان يدقق فى موضوعات الإنشاء حين هاجم فوزى بغتة (امال فين موضوع القدس يا أستاذ ؟) لم يجده فى كشكول التحضـــير أو كراســـات البنات. أراد فوزى الانتقام فقال (سوسن ضحكت على حضرتك يا أستاذ محروس) استعجب الأستاذ لأنها بالأمس رجته وقبلته بل وعدته حتى بدخول علمى ليكتب لها موضوعا فى صفحة واحدة عن القدس . قـــال فـــوزى فى حزن مصطنع أنه اليوم كاد يتصرف معها تصرفا آخر لولا خاطر الأســـتاذ محروس لأنها بصراحة أحرجته (يرضيك تلم من البنات تمانية جنية وخمســـة وتلاتين قرش تمن تصوير امتحان الشهر وتروح تصور بيهم منشورات ؟) فى حركة مسرحية أسنده زميل آخر ليجلس وهـــو يصـــرخ غـــير مصـــدق (سوسن؟!)

حين مد له فوزى يده بالمنشور صرخ (الحقنى يافوزى ...الحق يـــافوزى) . كانت سوسن قد صورت الورقة بخط يده .

لما جاءت سوسنتنا الغرفة بناء على أوامره . كنا جميعا نحبها وسندافع عنـــها حتى النهاية ، حتى وهى تقول (اعمل ايه يابابا خطك حلو؟) لكنه صـــرخ فينا بعد انصرافها (جيل مهبب! ... حد يجيب سيجارة)

حصة أولى احتياطى ؟! ياساتر... فى الفصل امتنعت معظــم البنــات عــن الإجابة فأكثر الحناجر مشروخة بسبب مظاهرة الأمــس . لكــن همهمــة تتصاعد منهن . يطالعن أوراقا فى نهــم . أبتســم . قطعــا منشــورات . المنشورات موضة قبل كل شيء . بخمسة قروش يصبح لــدى الواحــدة منشورا طازجا كتبته ليلة أمس. تخلع البنت صورة القدس من كتاب القراءة ويكتب تحتها قلم الثانوى بخط طفولى خيطا من أغانى فــيروز وعنــاوين الصحف وجمل الإنشاء المدرسى .فى مكتب تصوير المســتندات لا يمــانع عاطف كوكو فى التصوير ، ويبيع منشورات جاهزة بعشرة قروش ...كلــه مصلحة . اكتشفت أن الموضوع تحول إلى ظاهرة. كل واحدة تتباهى بعــدد المنشورات التى بحوزتها ولا مانع من المبادلات طبعا، ..وكأنهن يســتكملن ألبوم الشمعدان .

لكن المظاهرات موضوع آخر فاجئنا. فى الفسحة لم يتوقــف هتافــهن فى الحوش " بالروح بالدم نفديك يافلسطين" فشلنا فى إدخالهن إلى الفصــول . اشتعل صراخهن أكثر "واحد اتنين ...فين العرب فين؟" . لم نستطع إيقــاف طوفانهن الأزرق ففتحنا البوابة على أمل التخلص منهن . لكنهن اســتكملن الهتاف بالخارج وراودن طلبة مدارس البنين. وكانت مظاهرات مدوية.

ذلك الصباح وأنا أضحك من أخطائهن الإملائية ،قامت واحــدة وقــالت (طيب اسمع ياأستاذ المنشور بتاعى) . أخرجت عدة أوراق مطوية بحثــت فيها ثم قرأت . علقت أخرى (كدابة دى نقلت نصه من الثانوية العسكرية)

ردت أخريات (لأ من الثانوية بنات ...حتى شوف) ملأن يدى بحروفــــهن الفضة وجعلنى حكما. بينما أقرأ لفــت واحــد نظــرى كــان مكتوبــا بالكربون.على ورقة كراس .غير واضح تماما. قامت صاحبته وراحت تقــرأ من الأصل فى حماس وفى صوت مبحوح . الغريب أنها فى المريلة الزرقـــاء لم تكن تختلف عنهن . لكن هل يمكن أن تكون فقيرة إلى هذا الحد ،فقــيرة إلى حد أنها لم تمتلك قروشا خمسة.إلى حد أنها كتبته بيدها خمسة وعشرين مرة..
وأنا أطلب منها الأصل ترددت زينب قليلا بعد أن حذرتها "الرفيقات" من المسئولية القانونية قبل أن تقول فى عناد أخضر (حتعملوا فيا ايه مش بتقولوا علينا لسه عيال؟)
على هذا تذكرت ولم أستغرب أننى رأيتـــها بـــالأمس تخلـــع الإيشـــارب الأبيض.ترسم عليه خطين متوازيين ونجمة سداسية قبـــل أن تشـــعل فيــه النار.كن يصرخن فى حماس أو خوف وهو يشتعل فى سرعة ،وتتطاير بقايــا قماش الشيفون فى الهواء ..خفيفة ،محترقة .لكن قدمها فى الجورب القصـــير الأبيض كانت تدكه دون خوف.

-٤-

...وكأنهم لا أهل لهم. هؤلاء الأطفال الحفاة. يأتون كل مساء من الحـــى الفقير المجاور . ينفرطون فى شارعنا . لاينتهى صراخهم .يضربون بعضـــهم البعض ويتبادلون أقذع الشتائم فأسرع بإغلاق النافذة. حين يتصـــالحون، يصعدون عمارة ومن الدور الأخير يهرولون إلى أسفل رانين كل أجـــراس الشقق . حين يتوعدهم أحدنا يختفون إلى حين ،لكنهم يسددون بعدها البلى إلى زجاج نافذته فتخرج الشتائم لاعنة بعد أن يفروا كالعصافـــير . هـــذا

المساء فاجئونا بذلك الجهد الجهيد الذى بذلوه لإسقاط لافتة مرشح الحزب الذى هتفوا أمس فى موكبه . ربطوا حبل غسيل فى كيس. فى الكيس وضعوا حجرا وراحت أذرعهم الصغيرة تحاول بلا يأس أن تسقط (ابن الدايرة). حين سقطت لم يهللوا بل تسارعوا إلى اقتسام غنيمتهم وتقطيعها بالموس ، ثم ربطها فى عصى صغيرة . كانت الشرفات تضحك منهم وقد تخيلوا – فى غباء غير متوقع – أنهم يحملون أعلاما لم ترفرف. كانوا ثمانية تتبعهم عيوننا وقطتان ، حين انتظموا فى الهتاف هم *الذين لم يذهبوا بعد إلى المدرسة* "يوم ورا يوم جيل ورا جيل احنا بنكره اسرائيل" لم تستغرق الشرفات طويلا حتى فتحت جميعها وصفقت لهم.

-٥-

المدرس الثلاثينى متزوج ويعول . يذكر نفسه بذلك حين يلقاها فى الصباح . بيشرتها المتوردة والخصلة الشاردة التى تقبل عينين عسليتين فيهما حمرة نوم لذيذة . المدرس الثلاثينى متزوج ويعول . لكن هل كان بريئا تماما وهو يخبرها أنها كى تنطق u بالفرنسية عليها أن تزم شفتيها وتمدهما إلى الأمام قليلا كأنها ستقبل زميلتها فى الدرج . المدرس الثلاثينى خاف بعدها من تلك الشفاه ذات الزغب الأشقر على الحواف وهى تمتد ،فى صباح خريفى عذب،وردية... وردية كـ ... اللعنة على اللغويين كيف تضعف الكاف التشبيه . يشكر اللغة التى أهدتنا حرفا سحريا يجعلك ، بين جدران الفصل وثغاء المرايل الزرقاء، تستحضر فى لحظة واحدة طراوة الورد وحلاوة الكريز وتقاوم أن يبعثرك موج البحر.

المدرس الثلاثيني كانت الملائكة حتى الأمس تعصر في فمه كل صباح حبة كريز طازجة. لماذا الكريز ؟ لأنه لم يتذوقه أبدا ولا يتوقع أن يتذوقه لسنوات كثيرة قادمة . لكن حبة الكريز هذا الصباح شائهة متورمة .في حجم ثمرة طماطم مفعوصة .يفتقد زقزقتها وزميلاتها تخبرنه أن يد العساكر طالتها فى مظاهرة الأمس وأن الضابط لم يدركها حين هربت . وعندما قالت (مافيش U النهارده يامشيو . جى شوى مالاد) ضحكت البنات كثيرا .لكنه لم يضحك ..أبدا لم يضحك .

-٦-

لم تمتد يدها المختفية فى القفاز الأبيض إلى كوب الشاى ، ظلت أم كريم جارتى الأرملة تحدثنى أن مقصوفة رقبة من مدرستى اتصلت تليفونيا بابنها وقالت لها بالحرف (قولى له ياطنط دى مواعيد دى؟ النهارده استنيناه قدام المدرسة ربع ساعة وماجاش) وهى تضرب قفازا بقفاز قالت إنها لا تصدق طبعا أن اسمها يارا (وهو معقول تقول اسمها ؟ده اللى ناقص) وكنت أعلم أن السير فى المظاهرات لا يخلو من فوائد.ففى المظاهرات أصبح أمام طلبة مدارس البنين فرصة ذهبية ليمشوا جنبا إلى جنب مع البنات ومع "نموت نموت وتحيا القدس" كانوا يتبادلون المناديل الورقية ،صور الشهيد محمد الدره ،مذكرات الدروس الخصوصية ،قوائم البضائع الأمريكية المقاطعة،المنشورات إياها ..وأخيرا أرقام التليفونات وابتسامات تتفتح على مشاعر جديدة. لم أندهش من صوته المبحوح حين قال إنها زميلته فى درس الرياضة وأنه اتفق معها أن يتوجه إلى مدرستنا بفصل من مدرسة العسكرية للمشاركة فى المظاهرات ، لكن جنود الأمن المركزى والمخبرين طاردوهم

فلم يصل فى الموعد . لطمت ذات النقاب ، وحين تأكدت من الاسم قالت تشهدنى (شوف البجاحه! طيب والله ماعدت رايح الدرس) سألته عن تليفونها لتطلب أهلها فأنكر أنه يعرفه . عند انصرافها رجتنى أن أعقله بكلمتين .

قال لى أنه محرج و"شكله وحش" . وافقته أنه يجب أن يكون رجلا .جرنى ذلك إلى أننا غير مختلفين فى أنه ينبغى عليه على الأقل توضيح موقفه .أخيرا زنقنى فى خانة اليك وقال (طيب قول لها حضرتك ياأبيه)

حتى الآن لا أصدق أنه كان يتصل بها من تليفون شقق ،وأن مقصوف الرقبة أخرج رقم تليفونها من بطاقة ملونة مطبوع عليها بالأحمر "واقدساه" وقلب صغير مرسوم بالرصاص يسكنه "كريم ويارا إلى الأبد" .

-٧-

منديل ورقى متكور بين أصابعها . فتحتا أنفها الضيقتان محمرتان على الجانبين . تسعل بشدة وعيناها غائمتان فى سحابة أنفلونزا مبكرة . قالت إن ليل أسيوط ثلجى وأنها كانت فى رحلة كنسية، بالتحديد إلى دير مارى مرقس . سألها وهى تبحث عن كشكولها إن كان ذلك أثرا قبطيا هاما ، فردت ربما لكن المهم ان العذراء تتجلى هناك منذ شهرين . سألها هل أشعلت شمعة وتمنت أمنية فهكذا فعل فى رحلة أيام الجامعة إلى دير سانت كاترين . أخبرته أن الكنيسة كانت مغلقة وأنها اضطرت للصعود إلى بيت قريب للمشاهدة .ضحك وضحكت وهى تحكى تفاصيل انتظار المعجزة : فالجيران المسلمون يؤجرون سطح بيتهم للقادمين . مشاهدة المعجزة على الواقف بخمسة جنيهات أما الكرسى فبثلاث جنيهات إضافية .كمجرد حب

استطلاع ،نفض السخرية من نبرات صوته ،وقال بملامح حاول أن تكـــون جادة (والعدرا ظهرت ؟) قالت طبعا وحكت أن النجوم فى السماء كـــانت أروع ماتكون وأن الحمائم النورانية كانت ترفرف فوق قبة الكاتدرائية بـلا توقف . مايحزنها هى كلمات الأسقف فـــالعذراء لا تظـــهر إلا ويحـــدث استشهاد للمؤمنين . أحس بالقلق من تلك الإشارة الواضحة وهو يستدعى ذكرى دم زكى مستباح ،مسلم ومسيحى، سفك منذ عـــامين . كـــانت الشمس تملأ عليهما حجرة المدرسين الخالية وأخيرا وجـــدت الكشـــكول فسألها ماذا كانت تفعل فى انتظار المعجزة . قالت لاشىء .. كان الســـطح يضج بالوافدين، والبيوت القديمة ترقص من الزحام وترانيم "السلام إليـــك يامريم" . لاشىء سوى الانتظار أو تعجل المعجزة وأحيانا متابعة انتفاضـــة الأقصى من تليفزيون ترانزستور أبيض وأسود. المهم أن كريستين متأكدة أنه بعد الرصاصة الغادرة، وسقوط محمد ملتصقا بالحائط ..بعيدا عن حضـــن أبيه،تجلت العذراء مباشرة .

-٨-

تختفى الخطوات من الشوارع شيئا فشيئا . أضواء المدينة عيون تغمضـــها فى وجهه واحدة بعد أخرى ..والساعة فى معصمه تشير إلى الحادية عشرة. منذ الثانية تليفونات ومشاوير خائبة إلى المدرسة ،إلى البيوت والمستشفيات.يسأل عن طفل فى أولى ابتدائى لم يعد فى أتوبيس المدرسة، لم يعد حـــتى الآن إلى البيت . يعرف أن القانون يستوجب مرور أربع وعشرين ساعة للتبليغ عـــن اختفائه لكن ما باليد حيلة. لا يستطيع العودة إلى البيت فزوجته تصـــرخ مجنونة فى الشقة المفتوح بابها على مداه ،والجيران الذين لا يعرف أسمـــاءهم

جالسون بالبيجامات أو بقمصان النوم يهدئونها. يطرد من رأسه طيور القلق السوداء . مراد بخير . سيعود الليلة حتما . فى الغد سيدركه فى آخر لحظـة وهو يركب أتوبيس المدرسة ليضع فى حقيبته السندوتش الـذى سينساه كالعادة . وفى الأيام القادمات سيكبر . يكبر حتى تطاول قامته يوما قامـة أبيه.

فى الضوء الأصفر الترابى ،بين الحوائط الكالحة ،والبلاط الصغير المتـآكل لم يصدق أنه رآه فى القسم، على دكة الحجز، خلف قضبانه القصيرة، وبـين أولاد الثانوى... صغيرا كعصفور .صرخ (بابـا) ثم أخفـى وجهـه وراء العسكرى العجوز . الضابط الشاب ضحك وهو يقول (ابنك يـا أسـتاذ ثورجى كبير ، مسكناه فى مظاهرة بيهتف يافلسـطين يافلسـطين احنـا وراك ليوم الدين) .

هو الذى لم يمش فى مظاهرة واحدة طوال حياته ،هو الذى يخاف العسكر، لم ترتجف يده وهو يستعيد البطاقة العائلية ورفع صوته عاليا – فى القسم– أنـه لن يعود بغير ولده، وأنهم لاحق لهم فى القبض على طفل فى السابعة . لـن يسكت .سيتصل بجمعيات حقوق الإنسان وصحف المعارضة وحتى بقنـاة الجزيرة . الضابط الذى راح ينظر إليه كطفل كبير قال بلا غضب (كـل ده؟ بالراحة شوية يا أستاذ) أفهمه أنهم أنقذوه من تحت أقدام المظاهرات . ساقطا على ركبتيه وبلا حقيبة . سألوه عن اسمه أو بيته فلم ينطـق ، وأن العسكرى سأله (طيب تعرف تروح لوحدك؟) فلم يزد عن البكاء .اضطروا لوضعه فى البوكس واصطحابه معهم إلى القسم.اقترب العسكرى العجـوز

وهو يحمله بيد وفى اليد الأخرى سندوتش (بقى اسمك مراد ؟ خلاص بابـا بقى يخليك تاكل).

فى الطريق لم ينطق بابا بكلمة واحدة . فى مدخل البيت أفلتت اليد الصغيرة من يده . سبقه إلى أعلى ، وعلى السلم استدار فجأة وقال (بابـــا انـــت زعلان منى عشان مشيت فى المظاهرة؟)

لم يكن مراد يحتاج لسنوات إضافية ، فقامته كانت فعلا أعلى بكثير من قامة أبيه .

شاطئ غير بعيد

صبيحة زفافها قال لها أحمد :

- أنا بحب الشجرة دى ، بتفكرنى بلون عينيكى.

ومن شرفتها كانت شجرة البانسيا تبدو كسجادة فارسية تسبح فى الفضاء، زهورها تتوهج كعناقيد حمراء صارخة . من شباك السلم تحب أن ترى عن قرب أوراقها ذات الخضرة الزاهية، أوراق صغيرة كحبات الترتر تحملها فروع هشة تتأرجح فى الهواء.فكرت هبة لعل هذا هو السبب فى أنها لا تجد بها عشا واحدا للعصافير.

فى صعودها هذه المرة لم تلفت البانسيا نظرها بل الشـــقة الســـفلى وهـــى مفتوحة على آخرها، كأنما فاجأها نور الشمس ،لم تتخلص بعد من العتمـــة، ويهب منها هواء مكتوم. من موقعها على السلم كـــانت تـــرى الشـــرفة مفتوحة...على الأرض آثار حديثة لأقدام تظهر فوق التراب الكثيف وتمتـــد حيث أصوات لم تر أصحابها، وأمعنت هبة النظر فى لون الجدران الأبيـــض الذى استحال إلى مايشبه بقع الغراء.

تساءلت هل سيضيفها المالك وصاحب السوبر ماركت إلى مخازنه ، شـــأن الدور الثانى والثالث ،أم باعها تمليك؟ ربما أجرها إيجارا مؤقتا فهو لم يفلـــح فى السابق سوى فى بيع دورين فقط تمليك . سافر أصحابها وبقيـــت هـــى الساكنة الوحيدة .

متأخرا ذلك المساء ، دق شاب نحيل ، بملامح تخلو من أية وسامة ونظـــارة تشبه نظارة زوجها أحمد ، وسأل عن (الأستاذ) .نزل معه أحمد بالبيجامـــة وعاد ليخبرها أن هذا هو جارهم الجديد الذى لم يحصل بعد علـــى مفتـــاح بوابة العمارة

- محاسب فى مستشفى الجهاز الهضمى وحيتجوز الشهر الجاى.

أدار أحمد ظهره مكتفيا بهذا القدر من التفاصيل . لم يسمع تعليقها أن قانون المساكن الجديد سيفتح الكثير من الشقق المغلقة .لم تحصل على رد فلقد راح أحمد فى النوم .

• • •

لأن الشقة فى طريقها نزولا وصعودا ، تابعت هبة آثار الأقدام وهى تـــتزايد .بدأت الأصوات تعلو وتتعدد.أصبحت ترى أصحابها ،عمال يتعجلهم دائما

المحاسب. على المدخل كانت شقف البلاط المكسور قاعدة التواليت المخلوعة والحوض ،خراطيم الكهرباء ،مفاتيح النور ،أغلفة شكائر الأسمنت، كل ذلك يدعوها للحرص ،بالإضافة إلى الرمل الناعم الذى يغطى الأرضية وتخشى على نفسها الانزلاق بسببه ، تبطيء خطواتها دون غضب لترضى فضولها. أعجبها فى البداية تخلصهم من كل بلاط الأرضية ، نفس بلاط شقتها الصغير الكامد . استبدلوه بسيراميك أبيض كبير الحجم . أما مفاتيح النور الجديدة فكانت بلاستيكية حمراء زاد فى توهجها لون الطلاء الأبيض الذى امتد فى كل الشقة .

بدعوة من المحاسب قبلت الدخول مع أحمد للفرجة . بعد أن دخلا أغلق الباب وشغل جهاز التكييف . بدت الشقة رحبة . تعجبتَ أن تكون بنفس مساحة شقتها ،لفت أحمد نظرها بأن العفش لم يملأها بعد . كان الأسمنت الذى يفصل كل بلاطة عن الأخرى مازال سطحه محببا ،شائكا، لم تشذبه الأقدام بعد،وقتها راودها رغبة طفولية فى أن تقف حافية لتستمتع بملمس السيراميك البارد ،وأحست أن بخارا أبيض يندفع من البلاط ويشتت بصرها .

• • •

مع بداية وصول الأثاث تعرفت بزوجته سالى .بنت أنهت الثانوى منذ أيام.لم تكن بالجميلة ولكن شيئا شدها اليها . شيء حميم . كان فى وجهها براءة لم تغادرها تماما . لجسدها امتلاء طفلة أكثر منه امتلاء أنثى . ربما لأن البنت يتيمة ،يتيمة مثلها ، بدد ذلك شعورها الضئيل بالحسد الذى سبق رؤيتها وجعلها تشعر نحوها بمزيج من الشفقة والحنان .

كان النجار ينصب مرآة الشيفونيرة حين قال أحمد (لأ ...حرام المرايه تبقى قدام السرير) تضرج وجهها خجلا بينما لم تفهم سالى . بعد أن انتهى العمال من نقل الصالون للداخل، سألها جارهم ممدوح عن رأيها فى الصالون وهو يزيح الأوراق عن كرسى واحد. أجابت باقتضاب (جميل) كانت عيونها مشغولة بكونسول المدخل .التقت عيناها بعينيه وهو ينظر فيهما بعمق أحرجها . استدارت تستنجد بأحمد الذى قال :

- جميل ... جميل يا استاذ ممدوح .

رد ممدوح وهو مستمر فى مراقبتها

- واضح إن ده مش رأى المدام.

واستمر يحاصرها بعيون تبغى ردا

- يمكن الكونسول هو اللى مش عاجبك؟

ردت بسرعة (أيوه) وأحست من نظرات أحمد أنها تورطت لكنها استأنفت

- فعلا ضخم زيادة عن اللزوم ، واللون الذهبى مش قد كده.

بدا فى عينيه نظرة مهاجمة لسالى التى قالت فى تسليم:

- أنا اللى اخترته يا أبلة .

حاولت هبة تخفيف ارتباك البنت فسألتها عن اسم المحل ،قالت:

- من عند فؤاد؟ أنا عارفاه كان جارنا. آجى معاك ونبدله بحاجة تانية.

- كده حنتعبك يامدام؟

رد أحمد:

- أبدا هبة الصبح فاضية . فرصة تخرجي شوية.

وقال ممدوح:

- سالى دايما مترددة ، ياريت بالمرة تختارى معاها الأنتيكات والفازات من الجاليرى.

• • •

بعد ركوب الأولاد أتوبيس المدرسة ،جاءت سالى بصحبة والدها ، رجـــل بدين يبدو على وجهه هدوء غريب. واستغربت هبة ســـنواته المتقدمـــة . استبدلت الكونسول ، وعندما عرفت أنهم على وشك شحن غرفة الســفرة تدخلت واختارت واحدة أخرى ،لكنها أفهمت سالى أن الأصول أن تتصل بممدوح . كان عم مصطفى جالسا على كرسى أحد الصالونات رغم لافتـة " ممنوع الجلوس " ، يدير عينيه بفضول وفرح على التحف وقال:

– ياست هبة... سالى بكريتى ،حضرتك زى أختها ، اشترى لها اللى نفسـها فيه . أنا ما أفهمش فى الحاجات دى.. كمان ذوقى مش حلو

وتنهد وهو يضيف

- والدتها الله يرحمها كان ممكن تعفينى ... البركة فيك.

وعادت سالى لتقول إن ممدوح لن يأتى لكنه موافق مقدما على ذوق مـــدام هبة.

• • •

فى البداية لم تكن متحمسة لتلك الجولات الصباحية. لم تعد تحب الخـــروج. بعد رحيل أمها شح لقاؤها بأخوتها. صديقاتها سافر معظمهن مع أزواجـــهن أو انقطعت أخبارهن بعد الخلفة ، موضوع التعين فى خـــبر كـــان . حـــتى السوبر ماركت لم تكن تنزل إليه .تكتفى بالاتصال ليصعـــــد لهـــا عـــامل باحتياجاتها.

بعد الظهر يؤول الأولاد إلى الدروس ، وتظل هبة وحدها مـــع القنـــوات الفضائية. لم يعد لها صبر على القراءة إما بســـبب مقاطعـــات الأولاد، أو امتعاض أحمد إن رآها تمسك كتابا ، فى حين أن مشاهدة التليفزيون لم تكـــن تضايقه .

كانت فيما مضى توصل الأولاد فى الصباح بنفسها أما الآن فتراقبهم مـــن الشرفة إلى أن يركبوا الأتوبيس ، تتأنق فى اختيار ملابسها ، تلون شـــفتيها بالأحمر وترسم عينيها. لتبدأ جولتها مع سالى وتعود فى الثالثة موعد عـــودة الأولاد .

من أصحاب المحلات أنفسهم واللف والدوران تعلمت هبة أسماء لوحـــات السيرما والبورما ، تماثيل وتابلوهات الأرجنتو الإيطالى ، خزفيات الســـيفر والشنواه والليموج ، كذلك أن تفاصل فى الأسعار ،وأن تقترح أشـــياء لم تكن فى حساب العروسين مثل شراء كرسى هزاز مثلا . صارت تحب شراء التحف ...السجاد ...النجف ...قطع الأثاث الصغيرة ، أما بقية مســـتلزمات سالى من ملابس فكانت تؤجلها للمساء وتتكاسل كثيرا عن اصطحابها عـــدا فستان الفرح الذى اختارته لها بنفسها.

* * *

أجمل ما لفت نظرها فى شقة سالى كان الستائر .لم تستطع أن تلوم أحمد لأن الستائر مفروض أنها على العروس. اكتشفت أهميتها فى تحديد وتجميل شكل الشقة . كانت تستمتع بعمل المنجد ،ومع ذلك لا يسلم مـــن ملاحظاتهـــا المستمرة . ما أن فض الأوراق التى تغلف بقية كراســـى الصـــالون حـــتى

تفتحت واحدة فواحدة أزهار كبيرة صفراء كعباد الشمس . بأوراق عريضة ذات حضور قوى فأحست بنفسها تائهة فى غابة استوائية.

نصب الرجل البلتكانات فى ثلاثة ألوان :الأخضر والأحمر والأصفر. قماشها من نفس قماش الصالون سميكا مكتوا. يتداخل فى فن ،وتتهدل منه أهلة من ساتان وردى. على النقيض كانت الستائر هفهافة أكثر وناعمة أكثر ، كأنها غلالة تفضى إلى كهف مسحور وليس إلى مجرد شرفة . كانت انسيابية لدرجة مدهشة فتذكرت هبة عناد ستائرها عند الإغلاق والفتح. أخيرا جمعها من الجانبين حبل حريرى مضفر جعلها تخال نفسها فى مسرح فخم.

كانت فى سنتها الجامعية الأخيرة حين تقدم لها أحمد بطريقة زواج الصالونات كما يرددون الآن فى برامج "التوك شو". لم تعترض أمها أمام استعداده لأخذها بشنطة هدومها ، لكن أعمامها فأجادها .قال عمها خميس الذى طالما ظنته بخيلا .

- ازاى ياباشمهندس . احنا بنديك لحمنا ، الصغيرة عليك والكبيرة علينا.

واكتتب الأعمام لتجهيزها فى شهامة كانت تستدر دموع أمها ،وإعجاب أحمد وثناؤه أمام أهله أنها بنت أصول. فوجئت هبة بأكواب وملاعق وأطقم سفرة وأجهزة كهربية بل حتى بالسجاد وقد جاء به أعمامها من الخليج. فاجأتها زوجة عمها ثروت بإهدائها كل احتياجاتها من الملابس الداخلية وهى تقول (واحنا عندنا كام هبة ؟) لم تكن تستطيع الشكوى أو الرفض.أحيانا كان يعجبها شىء لكنها لم تكن تعرف تحديدا أى عم عليه الدور فى الشراء. كان كل منهم يجلب ما يستطيع بإرشاد من زوجته وبناته ،وأحيانا ما يمكنه

الاستغناء عنه من ملاءات ومفارش سرير وأنتيكات تايوانية فائضة لم يجـــد مكانا لها فى بيته ...

ليلة الزفاف أحست أنها فى شقة ليست لها ، ولم يتبدد شعورها بالغربـــة إلا بعد ميلاد تامر ،فى كل صباح كانت وهى لا تزال فى الفـــراش ، نصـــف نائمة، تندهش (لماذا أنا هنا ؟) وشيئا فشيئا تدرك أنها تزوجت وأن هذا هـــو بيتها .

* * *

حين صعدت إلى شقتها قال لها أحمد فى ضيق:

– انتى مالك . ناس وحرين فى بيتهم ،اللوحة جميلة ماتخليش حاجة جنبـها عشان تظهر . السيرما هنا والبورما هناك . وحاسب يـــاممدوح علـــى الفازات والبونبونيرة . لازم تحرجيهم ؟

– أنا ما أحرجتش حد . هم اللى طلبوا رأيي.

رغم ذلك استغرقها الأمر حتى صارت تدقق فى ديكـــورات المسلســـلات. ساعدها الإعلانات على تكوين صورة المطبخ ، طالعت عدة كتالوجـــات وظلت على يد النجار للتأكد أكثر من مرة من القياسات، وعلى عكـــس الإعلانات صممت على جعل واجهة رفوف الصف العلوى من الزجـــاج المرسوم بألوان استوحتها من أكواب فرنسية ،عثروا بعد عناء على طالبـــة بكلية التربية النوعية لتنفيذها ، بعدما أقنعت سالى بأنها هكذا تطيل عمـــر الضلف الإفتراضى فلا تتلف من كثرة الفتح والإغلاق .

* * *

كانت تصمم على الاتساع والفراغات والتناسق ، وتلفت نظـــر ممـــدوح باستمرار إلى تجنب تكديس الأثاث بلا داع. وحين فوجئت بعم مصطفـــى يحمل أوراق نباتات وزهورا صناعية، تختلف بكل الأحوال عن البلاستيكية التى فى شقتها وتبدو حقيقية إلى حد كبير، اعترضت فى عنف تعجبت مـــن نفسها له بعد ذلك . وأقنعت سالى بشراء نباتات ظل ، ورغم المجهود المتوقع فى رعايتها دافعت عن فكرتها بأن الإحساس بوجود حياة فى البيت شيء هام جدا .

وفى الأيام الأخيرة التى تسبق الفرح ، رغم مطالب الأولاد، كانت تعيـد فى رأسها ترتيب شقة سالى وتتصل بها لتقترح بعض التغييرات، وتمارس معها فى اليوم التالى التنفيذ .ترفع الكراسى الثقيلة .تبدل وضـــع السـفرة..حـتى استقرتا على أفضل شكل نهائى ،وأقنعت هبة نفسها أنها مثل فنان كبير يضع لمساته الأخيرة على عمل متوسط القيمة فيحيله إلى تحفة فنية.

قبل الفرح بيومين طلبت من أحمد أن يصطحب الأولاد بعد المدرسة إلى بيت والدته .اعترض فقالت:

- ياأخى حرام عليك ، سالى أمها ميتة مين يقف جنبها فى اليوم ده ؟

سكن وجهها فجأة وكأنما غادرت شفتيها الحـــروف ، وامتـــلأت عيناهـــا كبترين أخضرين بالدمع فاحتضنها أحمد فى صمت.

• • •

أحست هبة أنها تسترد أياما حرمت منها .استيقظت مبكرا وارتدت بنطلونا استريتش وتى شيرت .ظلت طوال النهار مع سالى وأم ممدوح ،تزيل الأغلفة عن علب الكئوس وأدوات المطبخ وطقم الصينى، ثم ترصها بعناية فى النيش.

كان عم مصطفى وقد انتقلت إليه حيويتها يزل ويصعد إلى السوبر ماركت حاملا السكر والشاى والصابون وأكياس المكرونة وعلب الصلصة والسمن وزجاجات الزيت .بينما كانت هبة مع سالى ترتب الدواليب وتفرش الملاءات والمفارش على صوت الكاسيت وأغانى الأفراح .وكانت أم ممدوح طائعة تستأذنها قبل الشروع فى أى عمل

- يامدام هبه . أفرش المشايات دلوقت ولا أسيبها فى الآخر؟

عند اقتراب المساء وقفت هبه فوق السلم لتغيير لمبتين محترقتين فى نجفة الصالون ولم تستمع لنصائح أم ممدوح بانتظار مجيئه جالبا لهم بعض السندوتشات. وفوجئت بممدوح يلقى التحية فى تردد فشهقت . كانت العروس قد اختفت وأغلقت على نفسها الباب خجلا من ملابسها المتربة . أما هى فكانت فى وضع لا يمكنها معه النزول بسرعة أو الاستدراك . أحست أنها تقف على السلم عارية ارتبكت واهتز بها السلم فكاد ممدوح أن يهرع لإمساكها .

سقط مشبك شعرها وكان شعرها الأسود وهو يتلوى ويثب فى الهواء،كقط يثب فجأة ليصطاد عصفورا ، باغته المشهد . سمر أقدامه. بينما رأت هى رأسه أسفلها ، قريبا من التقاء فخذيها... جاء صوت أمه من المطبخ فاترا مرهقا (لسه فاكر يا ممدوح ؟ احنا متنا من الجوع)

قال فى حياء بخطوات متراجعة:

- آسف والله ماعرفت حضرتك من غير ايشارب

فيما كان يكرر اعتذاراته وينصرف قالت أمه :

– خلاص مدام هبة بقت واحدة من العيلة .

فى الحمام وضعت الفوط وزجاجات الشامبو والصابون ، كذلك كولونيا وماكينة حلاقة " جيليت " ذات ثلاث شفرات. ضحكت فى سرها على أحمد الذى مازال يستخدم ماكينة حلاقة أثرية ولا يتخلص من الأمواس التى تخاف على الأولاد منها .

استبد بها وهى تقضم السندوتش زهو خفى ، لامت نفسها على سوء ظنها بالشاب لكنها كانت تتساءل – متلذذة بمشهد ارتباكه وطعم السندوتش – منذ متى كان واقفا . اعتقدت أنه تلكأ قليلا فى الخروج لينظر إليها أكثر.

• • •

فى المساء كانت الاستعدادات قد اكتملت. أضاءت هبة كل الأضواء فى الشقة . على النور الأصفر تلمع الخيوط الذهبية لجياد لوحة السيرما . تقاومها السجادة التى تحس زخم نسيجها ، لم ترضخ وتقاوم بوبرة شامخة قدمها الحافية. ألق باذخ ترقص عليه أزهار الصالون . كان للأثاث شبابا وفتوة . تتحسسه يدها فى شبق. يدها التى تعودت الملمس الغائص والمكتوم بل البقع الدهنية المشدودة بالتراب لأثاثها.

انصرفت أم ممدوح بعد أن أحرقت البخور فى كل الغرف، وبقيت سالى فى انتظار عم مصطفى . أوقفت سالى موسيقى الفرح ووضعت أغنية قديمة مازالت تحفظ هبة كلماتها وظنت أن أحدا لم يعد يسمعها"هالو" لليونيل ريتش . جلستا تستمتعان بالتكييف وطعم النسكافيه القوى .

قامت سالى أولا إلى الحمام وتركتها فى غرفة النوم . ألقت نفسها من التعب على السرير . حشو المراتب كان منتفخا وكاد يلقيها عنه كفرس . حين استكان لها قليلا كان يتموج بها فى شقاوة .المخدات ممتلئة ترفع لها رأسها

فتستطيع أن تحصى على الشيفونيرة أشياء سالى الخاصة ،عطور وفراشى شعر وأدوات الماكياج وكريم للبشرة ، ورأت هبة نفسها فى المرآة جميلة بعـــود قوى . شعرها ينسدل على الفراش كأميرة تنتظر .
استولى عليها من الإرهاق وبرودة التكييف خدر لذيذ ، أغمضت عينيـــها وهى تتحسس نعومة المفرش الساتان فأحست أن جسدها يطفو كجزيرة . الموسيقى تبلبلها .روحها تتراخى وتسيل على الأثاث والسيراميك والسجاد ثم تذوب فى الأضواء وسحب البخور... رست على شاطئ سنوات بعيـــدة ....ليلة عرسها .تخيلت سيناريو جديد فى شقة جديدة، ووجـــدت نفســـها بسهولة تستعيد كلمات الأغنية

I've been alone with you in my mind
and in my dreams I've kissed your lips a thousand of times

فتحت عيونا جازعة . تملت فى الغرفة كأن أحدا يراقبها ، ولما دخلت ســلى سألتها فى قلق:

– مالك يا أبلة لونك مخطوف وبتنهجى كده ليه ؟

ما أفزعها أنها رأت نفسها فى هذه الشقة، على هذا الفراش ،وأن أحمـــد لم يكن فى حضنها بل ... ممدوح.

• • •

عندما وصلت إلى شقتها كان فى أعلى فخذيها انتفاض أرنب حديث الذبح، أخرجت المفتاح وأصابعها ترتعش. سيطر عليها إحساس بالمطاردة جعلـــها تتعجل فتح الباب بلا جدوى. مرت لحظات طويلة حتى اســـتجاب لهـــا. أغلقته خلفها بسرعة .

فى الحمام وقفت تحت الماء الساخن لوقت طويل .

ومرت برأسها شذرات ذكرى . ذكرى أمها الراحلة وكلماها أن تغطـــى ساقيها وألا تباعد أبدا بينهما فى الفستان ، أو وهى تنهرها أن تدخل الحمام مع أختها .ذكرى أول طمث وكيف دخلت لتعلمها التعامل مع أنوثتـــها. فستان الفرح الأبيض الذى نضاه أحمد عن جسدها .أول مصة من شــــفاه ابنها تامر لصدرها .وأشياء أخرى غريبة مثل ارتياحها أن ملابسها الداخليـة كانت جديدة ونظيفة.

..وحتى موعد عودة أحمد والأولاد كانت تجلس فى الصالة وحدها. تنظر فى شقتها وكأنها تراها لأول مرة. الشقة التى شهدت فض بكارتها وميلاد تـامر وعمر . راحت عيونها تتعثر فى التجديدات الغبية المستمرة لزوجها . زحـــم الشقة بأنتريه ضخم وسفرة ذات حجم شرس . صمم على عمل آرش جعل الصالة تطبق على صدرها. بامتداد الحائط ، لصق منظرا طبيعيا تقشـــــرت أوراقه لأشجار لاتعرف اسمها . من الناحية الأخرى آيات قرآنيـــة كبـــيرة ورخيصة الثمن تحول إطارها الذهبى النحيل، لرداءة الصنع إلى، بقع سوداء. أشبه بفضلات الذباب . فقر حياتها كان يبدو واضحا فى نــــور اللمبـــات النيون - الأكثر عملية فى رأيه ـــ والذى يذكرها أحيانا أنها عند الكوافـــير أو الخياطة.

• • •

ليلة الفرح ، صعدت قبلهم وأضاءت الأنوار. ألقت نظرة الـــوداع علـــى الشقة . كادت أن تبكى بحزن أم ترحل وحيدتها إلى بلد بعيد .

فى المطبخ وهى تعد العشاء كانت تشعر أنها مخنوقة وعجوز ، تريد أن تصرخ فى غضب ..فى عنف . سقط منها طبق البيض المقلى أحست أن كل جسمها مشدود كوتـــر . اســتيقظ الأولاد وجـــاء أحمـــد مـــهرولا فى ملابســـه الداخلية.وجدها تبكى . (مالك؟) صرخت فيه أنها سئمت حياتها فى هـــذه الشقة التى طالما طلبت منه تغييرها بعد أن فتحها الله عليه من أكياس الزبالة. قالت إنه استخسر فيها شفاطا للمطبخ وتركها تختنق فى الأبخرة الدهنيـــة .لم يستكمل حتى الآن السيراميك الذى يصل فقط إلى منتصف الحائط ولاتفلح جهودها أبدا فى تنظيفه ..

- انت مجنونة ؟جايه تفتكرى الحاجات دى الساعة اتنين بالليل؟

صرف الأولاد وقال بلهجة فاهمة:

— بلاش نبص لحاجة الناس . الرضا فى القناعة.

وهنا حطمت الأطباق التى على رخام المطبخ ، قفز أحمد حافيا وظلت عيونه من وراء النظارة تبحث فى الأرض وهو يقف على أطراف أصابعه محـــاصرا يدقق أين يضع قدميه ليخرج ، حين تحركت توقع هجوما آخـــر فـــدارى جذعه نصف العارى . فجأة بدا لها شكل أحمد كوميديا للغايـــة فراحـــت تضحك فى هستيريا.

فى حجرة النوم استكمل أحمد مشروع السهرة فلقد أوحت له وقائع الفرح بأشياء أخرى . قال:

- حقك عليا . بس كل يوم بتطلع حاجات أشكال وألوان . احنا عندنـــا ولاد لازم نأمن مستقبلهم . ساعات بيتهيأ لى إن ممـــدوح ده جـــدع عبيط. شغل سبع سنين فى السعودية يضيعه كله فى شقة .

استعصت عليه ، وأخيرا بعد مجهود مضن قررت إســـكاته . وفى الظـــلام كانت تشعر بجسده ثقيلا فوقها ..عندما تفتحت مســـام رغبتــها، خـــف الجسد.. لم يكن لأحمد بل لممدوح .فزعت، ولأول مرة منذ زواجها أضاءت نور الأباجورة .

• • •

عند وصولهم للتهنئة كان الضيوف على وشك الانصراف فالأطباق شــــبه خاوية ،ومنفضة السجائر على وشك الامتلاء. تضايقت من أقارب ســـالى فقد دخلوا جميعا بأحذيتهم التى تركت علامات على السجاد ،ونثروا بقايــا البيتى فور على الأرض. عيل صبرها من ولد صغير كان يمسك بكأس مـــن العصير يكاد يندلق وظلت تقول له (حاسب ياحبيبى .) أما حـــين أســـقط منفضة السجائر على الأرض ، همت أن تضربه على يده كما تضرب ابنـــها عمر. جمعت الأعقاب وقامت ببساطة لتلقيها . ساعدت سالى بعد انصرافهم فى حمل الأطباق والكؤوس الخاوية .

كانت هديتها للعروسين فخمة تناسب أناقة الشقة شمعدان فضي انجلـــيزى الصنع فقالت سالى.

- ذوقك دايما شيك قوى يا أبلة . بس ماكانش فيه داعى، كفاية تعبـــك معانا فى الشقة .

- ماتقوليش كده دى شقق.

- أنا مستعدة اسيبها لك ياأبلة واطلع شقتك المسافة دور واحد.

قال أحمد واعتقدت هبة أنه لم يفعل إلا لإغاظتها

- بس بتمن تكيفين مش كنت جبت لك عربية صغيرة ياممدوح.

- أنا برضه فكرت فى كده لكن أنا قعدت سبع سنين فى شقق مشتركة ، حاجة تقرف لدرجة إنى ساعات ماكنتش بأبقى عايز أروح . الواحد لازم يلاقى راحته فى بيته .

ونظر إليها بطريقة طبيعية متوقعا تأييدها لكنها تلعثمت .

• • •

بعد أيام من خناقة أخرى واتهامها له بالبخل. وجدت عمال المصنع يصعدون بالسيراميك يساعدهم آخرون من السوبر ماركت .بلاطات منقوشة ومتوسطة الحجم. اتصلت بأحمد فى التليفون وتشاجرت معه على صوت تكسير البلاط الذى زاد من عصبيتها .رد أحمد فى برود

- ده جزاتى . قلت اعملها لك مفاجأة . ماله؟ مش سيراميك جديد .

وافق صاحب المحل على تغييره بصعوبة . لم تجد لديه طلبها .كان أحمد قد وفق بمعجزة على حد قوله فى أن يجد نفس نوع سيراميك المطبخ أما سيراميك الحمام فلقد رفض تغييره فى حسم قاطع.

بعد تركيب الشفاط واستكمال سيراميك المطبخ كانت النتيجة غير مرضية. خذلها أحمد مرة اخرى ،فبعد إزالة ورق الحائط احتج فى اللحظة الأخيرة بأن الأولاد لايجدى معهم اللون الأبيض .وهكذا استقر الرأى مع النقاش على الأخضر الفستقى ، أحست بالخديعة خاصة أن الطلاء لم ينسجم كثيرا مع الأنتريه . بعد انتهاء العمل وقف أحمد يعرض التجديدات على ممدوح وسالى فى طاووسية ،بينما كانت هبة ترى شقتها كالثوب المرقع. بل أحست بالحنق على العروسين لأنهم باركوا تلك التغييرات، وعاودتها ذكريات أعمامها.

• • •

ممدوح فى البيت طوال الوقت . عادت لتوصيل الأولاد بنفسها حتى الأتوبيس . تمر على سالى فى الصعود والهبوط بلا فرصة للدخول فتبادلها التحية على السلم ،خلف الباب الموارب تظهر لها فى الضوء لمعة وألق غريب .بل حياة كاملة كأن الشمس تبخل عليها بما تمنحه لسالى .ووحدها فى الصباح عادت لا تجد ما تفعله سوى أن تظل لساعات تدخل بخيالها حجرات سالى، تجلس على أرائكها ، تشاهد تليفزيونها ،تأكل على مائدتها ، تصنع الشاى فى مطبخها ، تغتسل فى حمامها ، وأخيرا تنام فى فراشها . يكتمل المشهد بصورتها هى وممدوح فى الفراش .

كانت الصورة تداهمها رغما عنها مرات ومرات ، تقاوم وترفض أن تستسلم . بدت لها دائما غير ممكنة ، أحمد ابن حلال رجولته كاملة ، وليس فى نحافة جارها ما يثير أى امرأة .العجيب فى الأمر أنها كانت تخون تامر وعمر وأحمد الطيب ولا تستمتع بشىء. وشيئا فشيئا كانت تستسلم لتفاصيل المشهد مثل عمل مرلى ثقيل كتنظيف النجف قبل العيد . تسرح فى تلك الأفكار حتى تنهكها وتنام بعمق.

* * *

على العشاء قال أحمد منتصرا :

- شفت الخايب ، راجع تانى السعودية عشان يأمن مستقبله . طيب ماقلت لك.

لم تعلق فمنذ فترة تدق باب سالى متذرعة بأية حجة .ولا أحد.

فى الصباح ، تتأمل زهور البانسيا . انتحرت على أرض الشارع ...يدوسها العابرون . على الشجرة عصفور يحاول أن يحفظ اتزانه على أغصانها الضعيفة المتأرجحة بلا جدوى.

***

أخيرا بعد أكثر من أسبوع فتحت الشرفة.

قاومت هبة رغبتها لكنها استسلمت فى النهاية لإغواء السرول فتركت قميصا لعمر يسقط على حبال غسيل سالى.فتح لها ممدوح ،اندهشت أنه لم ينادى على سالى بل ذهب لإحضاره بنفسه . أخبرها أنه لاستكمال أوراقه سافر إلى القاهرة وعاد البارحة متأخرا فلم يستطع من الإرهاق أن يمر عليها عند عم مصطفى . أثناء حديثه كانت عيونها مشغولة عنه ،تدور وتطمئن على كل ركن فى الشقة ولما انتهت جملته قال محرجا (اتفضلى)

لم يكن قد أغلق الشرفة جيدا .هبت نسمة مفاجئة فطارت بالستائر الحريرية وأسقطت كوب الشاى غير الراسخ على المنضدة . جزعت ،اتجهت إلى المطبخ وعادت بمناديل ورقية ألقتها على السجادة لتمتص الشاى. وبفوطة مطبخ مبلولة انهمكت على الفور فى التنظيف.

كانت الشمس تسقط وتغمرها مثل شلال من الضوء ،كانت تحس الضوء قويا ذو انعكاس زئبقى ،وتجرحها أطرافه الفضية الحادة . كانت على ركبتيها ، فى منتصف شقة رجل غريب. وعت ذلك فجأة ،فتوقفت.

- مايصحش يامدام هبة.

وتنبهت أن يده تمنعها عن استكمال تنظيف البقعة ، تحس يده الآن علـــى ذراعها ، وذراعها يمتص لمسته كما الرمل يغوص فيه الماء . بـــل أحســـت بصدرها عار يتأرجح داخل ملابسها وتمنع البلوزة بالكاد انفلاته.

(ياإلهى ماذا فعلت؟!)

كانت يده دافئة ترتخى عن رسغها ، وتتلمس فى رفق وحذر أعلى ذراعيها ، ارتخت ملامحها مرة واحدة ولم تقو على النهوض

-مالك يامدام؟

أخيرا وحدها فى الشقة . حانت منها إلتفاتة نحو الباب . ساعدها لتنـــهض . كان يضغط على ذراعيها وتمس أصابعه جانبى نهديها فتحس بهما ينسكبان ، لما وقفت كان وجهها قريبا من وجهه يحمل رضوضا يميزه حـــق أصحـــاب النظارات . مال ليقبلها فلم تحول وجهها عن الباب وغمغمت بصـــوت لا يكاد يسمع(الباب مفتوح) . لم يتركها . مال بها بعيدا عن إمكانية الرؤيـــة وأحست بذكورته منتصبة فجفلت للحظة .لكن موسيقى الشقة كانت تمـــلأ أذنيها . الألوان تحاصرها حتى أن زهور الصالون الصفراء تمايلت لريح غـــير منظورة راحت تعربد فى رأسها .شعرت بقشرة دماغها تكاد تنفصل عنـــها وتطير إلى أعلى. أحست أن يدا ما قد تخلت عنها نهائيا ، كان بصرها يتزلق على لوحة السيرما الزرقاء .أنفاسها تركض كتلك الجياد الجامحة . فى شفتيها طعم مر. كان جلد ذقنه حليقا يتمرغ فى وجهها .مسامه مشبودة كغشـــاء الطبل اشتمت فيها رائحة الجيليت التى وضعتها بيدها فى الحمام. كانت تزم شفتيها بقوة لتوقف شعورها بالغثيان وتمنع روحها عن الانفلات من بينهما . تريد أن تخرج من فخاخ الألوان لكن أفكارها بعيدة عنها . تعرف أنها كلما

فكرت فى الانسحاب ،تأخرت وانصفق عليها الفخ وضاعت فرصة النجاة . كانت تريد لتلك اليد الحارسة أن تعود لتلقى بها بعيدا ..خارج الشقة. هى وحدها لاتستطيع . تريد أن تتخلص منه ومن امرأة أخرى بداخلها تدفعها باستمرار بعيدا عن الشط . وقالت تلك المرأة بصوت كالفحيح:

- أنا بحب أحمد وسالى صاحبق.

لم تتخل رغم عيونها المغلقة عن تسمع أقل حركة من ناحية الباب رغم أن هذا ليس موعد عودة أحمد أو الأولاد .أمامها حياها وأولادها وأحمد على شاطئ قريب. لن تستطيع المقاومة لأكثر من ذلك . الصورة واضحة فى رأسها. تيقنت أنها انساقت للإغواء منذ بعيد .الأفضل أن يتم كل شىء بهدوء وشجاعة . تريد عارا لتلك المرأة يمنعها عن تدمير حياتها . يجب أن تصل معها إلى أعلى الجبل وتلقى بنفسها لتشترى خلاصها .

أبعدت رأسه عن صدرها وهو يغوص بها على الفوتيه .قالت بحسم وقد توقفت عن الاختناق

- لأ مش هنا فى أوضة النوم.

سبقته إلى الغرفة فيما ذهب هو ليغلق الباب. وفى الغرفة خلعت فستانها فى هدوء ونامت على سريرها أخيرا بارتياح خفى أن ملابسها الداخلية جديدة ونظيفة جدا.

تلك اليونانية الأخيرة

كان ذلك في بدايات الشتاء ...

عندما جاءت لأول مرة ، تسبق ابنتها القصيرة ، وعلى شفتيها بقايا حروف أجنبية . ولأن معظمنا في ذلك المطعم الفخم يجيد الإنجليزية ، فلقد قلنا لها (welcome) لكنها ردت أنها مصرية مثلنا ، واختارت مائدة في آخر المطعم . طلبت محشي ورق عنب . كنا في بداية استلام الوردية . ولا مبرر لاستفتاح العمل بخناقة مع الشيف . ثم أنها ليست زبونة قديمة لنعد لها طلبا تخلو منه القائمة .

اعتذرت . تجاهلت اعتذاري وقالت :

- شوف جاسى عايزه إيه ؟

على الفور صححت لي جاسى الاسم وقالت:

- ياسمين

أما هي فصممت على ورق العنب . أزاحت الستائر وقالت في عناد أنها غير متعجلة وستنتظر . لم تشأ أن تسمعني ، وراحت تستمتع بالغروب .

لسبب ما أسقطنا ياء المخاطب فكنا نناديها (مدام) . ربما كـــان الســـبب ملامحها الإفرنجية ووجهها الأبيض مثل ابنتها . ربما أيضا لكنتها غير العربية . لكن أهم الأسباب - على ما أعتقد - أنها كانت أكبر سنا من أمـــهاتنا ولا تغطي شعرها ، بل تصبغه باللون البرتقالي الشاحب .تضع زينة كاملة وترسم حاجبيها - في دقة - كجناحي يمامة .

قال البعض إنها يونانية . واحدة من قليلات جدا لا يخرجن إلا نـــادرا وفي سبيلهن للاختفاء من مدينتنا .

زعم عصام أنها زوجة الخواجة باولو بائع الخمور . وأكد جورج أنها زوجـــة الخواجة راندوبلو - قدس الله روحه - صاحب محل الحلويات العتيق . ولأن حروف الاسم بدت أطول وأقدم تلاءمت في ذاكرتنا مع سنها المتقدم .

تعودناها لسنوات . دائما يوم الأحد . في الخامسة إلا ربع تحديدا . تدفـــع يدها المعروقة بابنا . تدخل بحاجبين مرفوعين في دهشة - بينما تتلكأ جاســـى - إلى المائدة التي حجزناها باسمها بعد أن رضخنا لطلبها وأقنعنا الشــــيف بصعوبة بإضافة محشي ورق العنب إلى طبق الأحد .

كنا دائما نمر أمام مائدتها مسرعين . ونضطر لتبادل التحية (أهلا مـدام) ، (باى باى مدام) خاصة أنها حفظت أسماءنا جميعا . كانت ترفع كأس المـاء الكريستال لكل واحد منا كأنها تشكره مقدما ، أو تقترح نخبا ما ، قبـلى أن تعود إلى مضغ أوراق العنب في تلذذ وعلى مهل ، دون أن تتبـــادل مـــع جاسي كلمة واحدة . بل تحدق في غروب الشمس الأحمر . بعدها تدخن في هدوء .

لم نكن نحفل بجاسي كثيرا . ربما لأنها كانت ضئيلة الحجم وأقصر بكثير مـــن أمها وربما لأنها كانت تجلس وهي تدير لنا ظهرها . فلا نرى سوى قفاهــــا وشعرها الذي اجتزته في قسوة رغم أنه يبدو جميلا وناعما . أما جســـــمها فكان كجسم الغلمان مفتقدا ودائما في بنطلون جينز .

أثناء وجودها ،فاجأنا عصام مرة وقال:

- بس مش عرفت لكم مدام تبقى مرات مين.

ونظرنا نحوه في اهتمام فقال في جدية:

- مرات الخواجة بيجو.

اندفعنا في الضحك . لكن حركة من إصبعها أخرستنا . كنت مـــترددا في الذهاب إلى مائدتها . لكنني اكتشفت أنني الوحيد الباقي في اتجاه أصابعــــها وأن الآخرين قد فروا .سألتنى:

- انتوا روحوا اضحكوا ليه ؟

أنطقني الله فقلت :

– عصام ... عصام اتخانق مع حماته مدام . أصلها شبه حضرتـــك . لمــا شافك قال يا خبر دى جايه تكمل معايا الخناقه.

رفعت حاجبيها كالعادة وقالت .

- عصام اتجوز ... ؟! خليه هو نزلتو الفاتورة .

حتى موعد انصرافها . كنا نعمل في توتر ، ونتوقع أن تمسح بكرامته بلاط المطعم وأن يصل الموضوع للإدارة . لكنها لدهشتنا منحته عشرة جنيهات غير البقشيش التقليدى وقالت :

- دى عشان عروسه.

وحين وزع علينا جمال سبوع ابنه محمد . لم ينس مدام التي ظلت تمسك علبة الملبس في فرح وقبل انصرافه منحته عشرة جنيهات أخرى .

- دى عشان نونو .

•••

وفي المرة الأخيرة همست لي أنها تريد تورتة صغيرة فاليوم عيد ميلاد جاسي.نظرت حولها كأنها ستقول شيئا خطيرا وقالت تأتمنني على سر:

- دكتورة جاسى بتحضر دوكتورا كبير . صعب قوى .

كانت قد تركت سجائرها قبل ذهابها إلى (الليدز روم) كما تسميها . وحين عادت ووجدت سيجارة بين أصابع الدكتورة ، ضربتها على يدها في لوم حنون .

وبينما كنت أستعد لإشعال الشمعة الوحيدة ، قالت جاسي:

- ماما مش معقول كده . أنا خلاص عندي تلاتين سنة .

نظرت مدام نحوها. ارتفع حاجباها حتى ظننت أن جناحي اليمامة سيطيران ويغادران وجهها الأبيض ، المتغضن ، والمزرق . وضعت كأسها في ارتباك

فاصطدم بسكين المائدة خادشا أذني في صوت حاد. ورأيت دمعتين كبيرتين تتلألآن بسرعة في عينيها التين اتسعتا .

وكأنما صك شئ عينيها ، فأدارتها بحثا عن ... لاأدرى. المهم أنها أخيرا اكتشفتني وقالت لي في نبرة لم أحدد هل ترجوني أم تسألني .

- تسعة وعشرين بس ... تسعة وعشرين بس

ظلت ملامح جاسي باردة . السيجارة تتدلى من شفتيها . مائلة بين خطين نحيلين رسمهما الروج . تغمض عينها اليسرى كي لا يؤذيها الدخان وتحدق بتحدي في وجه مدام

وفجأة سقط وجه مدام في طبق ورق العنب . انخرطت في بكاء شديد . تهدل شعرها بطيئا ، كالطحلب يحركه تيار خفي . رأيت بصيلاته ذات لون أبيض . وأحسست أن شعرها البرتقالي ،ذلك الخفيف الهش ، سيتفتت في يدي إن لمسته .

ارتفع نشيجها كالأطفال فتوقفت الأفواه عن المضغ .

أخيرا أطفأت جاسي السيجارة . انتقلت إلى الكرسي بجانب أمها . رفعت مدام رأسها الذي لم تدره ناحيتها أو ناحيتي . وكنت أراها من ظهرها - النحيل الذي وضحت عظامه - تحتفن وجهها بيديها وترتج . بنفس الرجلة كان صوتها ضعيفا ، مخنوقا في ملابس جاسي يكرر

- تسعة وعشرين بس جاسي تسعة وعشرين بس .

لأول مرة ، كانت جاسي تواجهنا . تخفي وجه مـــدام ، وتحــاول بفوطـــة مطعمنا أن تزيل عنه آثار الطعام والزينة التي ساحت . بأصـــابع بيضـــاء ، قصيرة ، نحيلة ، خالية من أية خاتم أو دبلة ، توشوش في أذن أمها

– مضبوط ياماما ... أنا نسيت .

وظل عقب السيجارة – ملونا بالروج الوردي – يحترق ويـــذوى في بـــطء ويرتفع دخانه كبخور واهن ، حتى بعد انصرافهما .

•••

مدام ... كل أحد ... لعام كامل ... انتظرتك أوراق العنب ... فلمـــاذا لم تأت ؟

•••

اليوم كان علي – بل أحسست أنه من واجبي أنا بالذات – أن أرفع بطاقـــة محجوز عن مائدتها ، وأن أزيح الستائر . أنظر إلى ذلك القرص الكبير الأحمر الدامع وأتمنى لجاسي سنة حلوة في عيد ميلادها الواحد والثلاثين ...

آسف ..أقصد التاسع والعشرين مدام .

يهوذا

زمان ...زمان... تقابل ولدان فقال الكبير "هذا الولد معـه كيـس مـن البلـى ويامـا نفسى فى بلية واحدة" .وبينما كان الصغير الفرحـان يسـتعد للعب قبـض الكبـير على بليات حسان وقال "هذا وقت الزوغان".

كان الصغير عبيطا بكى وبكى ولم يجر وراء الكبير العربان.

فى ذاكرتى صورة شاحبة ومبتورة ،لطفل لا أذكر عمره . طفل تسول دقائق للنزول إلى الشارع . يحمل معه كيسا من البلى ، وانشغلت عنه لسبب مـا أمه فلم تراقبه من الشباك .

يجلس على عتبة بيتهم . قدمه الصغيرة ممتلئة ومستديرة فى الشبشب .يسـند خده ومرفقه على ركبتيه الخاليتين من أى سلخ . عيونه تبحث عن طفولـة

يشاركه فيه أحد .حتى يأتي ولد يكبرنى بعام أو بعامين وليس معـــه بليـــة واحدة ، يقول سلاما . "سلاما " تسيل فرحتى فى الدقائق القليلة القادمـــة وهو يعلمنى كيف ألعب البلى .

أتابعه وهو يرسم الخط الذى سنقف عليه . ثم يرسم (الترنجيله) ذلك المثلث الذى نرص عليه أربع بليات جاهزة للتصويب عليها . لكنه يقول إنـــه الآن سينصرف . أرجوه أن يبقى وأعطيه بلية . يؤكد أن اللعبة لا تصلح هكذا ، لابد من اثنتين على الأقل ، واحدة يضعها فى المثلث ، وواحدة يعـــود إلى الخط وينشنها .

تسلفه خمس بليات . تخبره باسمك ويخبرك أنه يسكن فى شارع وراءكـــم ، وأنه متعجل يخاف أن تفاجئه جدته. أنت بداخلك طفل وحيد ،فتقول لـــه (إنت أخويا). تقبله وتقول (نلعب سوا كل يوم) .

أعطنى تفسيرا واحدا لخيانتك . ماذا لو استمرت اللعبة ولم نفلح فى التنشين على بلية واحدة . كنت سأستمر معك بنفس الفرحة . ماذا لو خســـرت البليات الخمس التى أعطيتها لك ؟ كنت سأعطيك غيرها . كنت سأنتظرك كل يوم وستصبح صاحبى . أنت يامن لاصاحب له .

فلماذا خنتنى ؟

ألأنك أكبر منى ؟ ألأنك لم تملك يوما بلية واحدة تقبض علـــى البليـــات الخمس وتجرى ؟ أنا أدركت أنك أكبر منى . وأنك لص صغـــير خـــائف مشعوف ستجرى بكل خوفك وتسابق الريح . أنا ذو القدم الصغيرة لـــن أدركك.

لن أسدد قبضتى المشدودة سوى فى الهواء، وسألقى بكل كيس البلى على التراب وأبكى .

أمن أجل خمس بليات من الزجاج الملون تبيعنى ؟

" ام تظن انى لااقدر الآن ان اطلب إلى ابى فيرسل لى اثنى عشر جيشا من الملائكة ؟ ولكن هذا يجرى إتماما للكتاب."

• • •

ذات يوم ...كان ولد يتيم خاوى اليدين يلعب مع طفل يصغره بعامين فى يده كيس من البلى يجاوز المائتين.فلما امتلأت اليد الخاوية بخمس بليات مرة واحدة جرى الجبان كالزهوان .سارقا بلى المسيحى وفرحة المسيحى.

الغريب أن اليد الموشومة بالصليب الأخضر ذى الحواف المورقة .القت بكيس البلى كله ...كله على الارض. وظل المسيحى يبكى مقهورا ويشتكى إلى الرب.

يداه الاثنتان خاليتان من أى شيء ، وقدماه ضربتا الأرض مرة أو مرتين ثم تصلبتا . لم يعد يملك سوى صرخته . لا يزال فى رأسى مصلوبا فى الهواء . آلاف الليالى يلوح فى الأفق ، أو على زجاج شرفتى . يحمل صليبه غير المرئى ويتبعنى .

هل يملك كل اللصوص حقا شجاعة إعادة تصور جريمتهم ؟أنا لم أكن أبدا ذلك الطفل . بل كنت اللص الذى لم تتركه جدته أبدا يلعب البلى ولا يعرف من اللعبة أكثر مما رآه من النافذة .

لماذا أذكر هذا الذنب تحديدا وقد كثرت ذنوبى حتى نسيت معظمها ؟

"حسن التوبة ألا تذكر الذنب" هكذا علمنى أبى .فلماذا أصبح لصا مرتين، وأسرق الآن منه دموعه أيضا وأجرى؟

• • •

كان ياما كان ... كان ولد مسلم وطفل مسيحى. وحين كانا يلعبان *البلى* ضحك المسلم على *الذمى* وقال لو شاطر يحصلنى. لكن *القبطى* لم يحاول مجرد محاولة وترك المسلم يجرى ... يجرى ... يجرى ...

سوف أفتح الليلة كتاب الحياة وأتابع مصير يهوذا . لماذا لم يصرخ على أبيه؟ ولماذا لم تحاربنى الملائكة ؟

بالتأكيد كنت يهوذا الذى يكبر بذنبه يوما بعد يوم ، ويخون ذلك الطفل الذى لم يكبر أبدا فى ذاكرته .

لكن ابن الإنسان أثبت كم يؤثره الرب فاجترح المعجزة . فر ، اهرب كيفما شئت ،سيظل دائما أمامك .

هل يهمكم مصير يهوذا ؟

بالتأكيد ألقى البلى فى بركة ماء ، وألقى بذنبه فى حضن جدته . ولم يلعب البلى بعدها أبدا .

أرجوكم دعونى الآن وحدى.

محتويات الكتاب

سلسلة إبداعات الدقهلية

صدر من هذه السلسلة

◆ الشعر فى المنصورة	مجموعة من الشعراء	١٩٩٣
◆ القصة فى المنصورة	مجموعة من الكتاب	١٩٩٣
◆ رحيق القصة فى الدقهلية	مجموعة من الكتاب	١٩٩٨
◆ رحيق الفصحي فى الدقهلية	مجموعة من الشعراء	١٩٩٨
◆ رحيق العامية فى الدقهلية	مجموعة من الشعراء	١٩٩٨
◆ أوراق أدبية	فؤاد حجازي	١٩٩٨
◆ بطاقة عائلية (مسرحية)	عبد الفتاح الجمل	١٩٩٨
◆ مواويل لميت سلسيل (شعر)	سمير عبد الباقي	١٩٩٩
◆ وجيه عبد الهادي	(كتاب تذكاري)	١٩٩٩
◆ احسن القصص (قصص)	إبراهيم حمزة وآخرين	١٩٩٩
◆ نافذة علي بحر طناح (رواية)	فؤاد حجازي	١٩٩٩
◆ إطلالة نقدية (دراسات)	د. عبد المنعم تليمة وآخرين	١٩٩٩
◆ أحسن الأشعار (شعر)	مجموعة من الشعراء	١٩٩٩
◆ المخاض (رواية)	عادل حجازي	١٩٩٩
◆ قيثارة السماء	محمد محمود عبد العال	١٩٩٩
◆ أوتار الدقهلية (دراسات)	أمين مرسي	١٩٩٩
◆ حروف من قش (شعر)	محمد ندا	١٩٩٩
◆ أحزان القمر (شعر)	محروس السلاموني	١٩٩٩
◆ المتاهة (شعر)	أشرف الفراني	١٩٩٩
◆ معزوفات قصصية (قصص)	مجموعة من الكتاب	١٩٩٩
◆ عيون الليل (شعر)	صفوت العسال	١٩٩٩
◆ ت (قصص)	طارق العوضي	٢٠٠٠
◆ كل هذي النجوم (شعر)	وليد فؤاد	٢٠٠٠
◆ نوبة جنون (شعر)	ناجي عبد المنعم	٢٠٠٠
◆ وعطرك يبقي (شعر)	محمد النبوي	٢٠٠٠
◆ فى محراب الآه (شعر)	المتولي زيادة	٢٠٠٠
◆ رؤي جديدة (دراسات)	مجموعة من النقاد	٢٠٠٠
◆ إبداعات القصة فى الدقهلية	مجموعة من الكتاب	٢٠٠٠
◆ الرقص علي طبول مصرية	فؤاد حجازي	٢٠٠٠
◆ شعر إبراهيم رضوان	إبراهيم رضوان	٢٠٠١
◆ رحيق الكلمة (دراسات)	فرج مجاهد	٢٠٠١
◆ يوم مناسب للقتل	أشرف حسن	٢٠٠٢

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٢/٢٥٦٣
دار الإسلام للطباعة والنشر
٢٢٥٠٤٥٣ / ٠٥٠ - ٠١٢٢٢٦١٤٣٦٢